
الطريق
إلى
سفينة الكنز
أحمد عبد السلام البقالي

أحمد عبد السلام البقالي

الطريق
إلى
سفينة الكنز

ـ 1 ـ

قَالَ الحَاجُّ (مُومِنٌ) لِطِفْلَتِهِ (وَرْدَةَ) التي كانتْ تقرأُ له مِنْ أَحَدِ كُتُبِها المَدْرَسِيَّةِ :

- وَرْدَة..

- نَعَمْ، يَا أَبِــي.

- كَفَى قِرَاءةً.. إقْفِلِي ذَلِكَ الكِتَابَ واخْرُجِي لِتَلْعَبِي مَعَ زَمِيلاَتِك.

وَنَظَرَتْ وَرْدَةُ إِلَى أَبِيهَا المَرِيضِ فِي فِرَاشِهِ، وَقَدْ غَارَتْ عَيْنَاه، وَذَبُلَ جَسَدُه، فَتَنَهَّدَتْ وقالت :

- قريباً تَصِلُ أمِّي لِتَبْقَى مَعَكَ، وَأَخْرُجُ أنَا..

نَظَرَ إِلَى وَجْهِهَا الصَّغِيرِ الشَّاحِبِ وَقَال :

- لاَ تَقْلَقِي عَلَيَّ.. لَنْ أَحْتَاجَ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى تَعودَ أُمُّكِ.. اذْهَبِي أَنْتِ والْعَبِي فِي الشمْسِ والهَوَاء.. فقد اَصْفَرَّ وجْهُكِ، ولا أُرِيدُكِ أَنْ تَمْرَضِي..

فَأَقْفَلَتْ الكِتابَ إِرْضَاءً لأَبِيها. وما كادَتْ تَقِفُ حتى سَمِعتْ صَرِيرَ بابِ الكوخِ القَصْدِيرِي وَهِيَ تَنْفَتِحُ، فقالت مُبْتَهِجَةً :

- هَا هِيَ أمِّي وَصَلَــتْ !

وأسرَعَتْ لاستِقْبالِها.

وانْحَنَتْ (حَفْصَةُ) مُتْعَبَةً لابْنَتِها لِتَقَبِّلَهَا، ودخلتِ الكوخَ، وألْقَتْ بِثِقْلِهَا على حَشِيَّةِ التِّبْنِ إِلَى جانبِ فراشِ زَوْجِها، وَقَعَدَتْ تَسْتَرِدُّ أنفاسَها المَحْبُوسَةَ مِنْ طُولِ السَّيْرِ.

والْتفَتَتْ إِلى زَوْجِها تَسْأَلُه :

ـ كَيْفَ تحِسُّ يا سِي الحَاجّ ؟

فَأَجَابَ رَاضِياً بِقِسْمَته :

ـ الحَمْدُ لِلَّه.. مَاذَا فَعَلْتِ اليَوْمَ ؟

ـ ذَهَبْتُ الى دَارِ الحَاجِّ المُخْتَار، فَأَعْطَوْني جَبلاً مِنَ المَلاَبِسِ لأُصَبِّنَهَا، وَلَمْ أنْتَهِ مِنْهَا إِلاَّ الآنَ. غداً سَأَعُودُ لأُكويَهَا وأطْوِيَها.

فَتَنَهَّدَ الحَاجُّ (مُومِنٌ)، وتَرَقْرَقَتْ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَتَان، وَلكِنَّه مَسَحهُما في الوِسَادَةِ قبلَ أنْ تَرَاهُمَا زَوْجَتُه أوْ صَغِيرَتُه وَرْدَة، وَقَالَ :

ـ وَجَدْتني أقُولُ لِوَرْدَةَ أنْ تَخْرُجَ لِتَلْعَبَ مَعَ صَاحِبَاتِها. فَقَدْ شَحُبَ لَوْنُها مِنْ طُولِ حَبْسِهَا مَعي.

وَنَظَرَتْ (حَفْصَة) الى طِفْلَتِهَا، وَتَذَكَّرَتْ شَيْئاً، فَتَناوَلَتْ قُفَّتَها، وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا تُفَّاحَةً نَاوَلَتْهَا إيَّاهَا :

ـ خُذِي هَذِهِ، يا وَرْدَةُ، وَاخْرُجي لِلَّعِبِ.. وَلَكِنْ لاَ تَبْتَعِدي كَثِيرًا!

فَأَخَذَتْهَا وَخَرَجَتْ تَجْرِي فَرِحَةً إِلَى الشَّارِع.. وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ الشَّاطِيءِ وَفِي ذِهْنِهَا فِكْرَةٌ واحِدَةٌ، وَهِي زِيَارَةُ صَدِيقِهَا (اخْتُو)، الأُخْطُبُوطِ الصَّغِير.



ـ 2 ـ

كَانَتْ وَرْدَةُ قَدْ عَثَرَتْ عَلَى (آخْتُو) فِي بِرْكَةٍ صَغِيرةٍ عَلَى الشَّاطِيءِ، أثْنَاءَ إِحْدَى سِيَاحَاتِها اليَوْمِيَّةِ.. فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فَوْقَ الحِجَارَةِ المَلْسَاءِ المَكْسُوّة بالطَّحَالِبِ الخَضْرَاءِ، إِذْ لاحَظَتْ شَيْئاً يَتَحَرَّكُ حَرَكَات غَرِيبَةً دَاخِلَ البِرْكَةِ. فَاقْتَرَبَتْ بِحَذَر شَدِيدٍ حتَّى لَا يَقَعَ ظِلُّهَا فِي المَاءِ، وَلَا تَقْطَعَ أَشِعَّةَ الضَّوْءِ دَاخِلَ البِرْكَة، فَإِذَا بِأُخْطُبُوط صَغِير يَلْعَبُ قَرِيباً مِنْ سَطْح المَاءِ، فَيَنْشُرُ أَذْرُعَهُ الثَّمَانِيَةَ في كُلِّ اتِّجَاه حَتَّى يَصِيرَ كَالنَجْم، ثُمَّ يَضُمُّهَا إِلَيْهِ فَيُصْبِحَ كُرَةَ لَحْم لَزِجَةً، ثُمَّ يَنْطَلِقُ بِسُرْعَةِ صَارُوخٍ فِي أَحَدِ الإتِّجَاهَات.

وَأَقْعَتْ وَرْدَة تَتَفَرَّجُ عَلَيْه، بِافْتِتَانٍ كَبِيرٍ دُونَ أَنْ يَرَاهَا. وَفِي حَرَكَةٍ بَهْلَوَانِيةٍ وَضَعَ الأُخْطُبُوطُ الصَّغِيرُ أَطْرَافَ أَذْرُعِهِ الرَّقِيقَةَ مُلْتَوِيةً فَوْقَ رَأْسِهِ، وَوَقَفَ يُطِلُّ من خِلَالِهَا، فَبَدَا وَكَأَنَّ لَهُ شَعَرًا كَثِيفاً.. فَلَمْ تَتَمَالَكْ وَرْدَةُ مِنَ الضَّحِكِ وَالْقَهْقَهَةِ بِصَوتٍ عَال..

وأَفزَعَهُ وُجُودُها وَقَهْقَهَتُها، فَانْدَفَعَ كَالسَّهْم نَحْوَ جُحْرٍ مُظْلمٍ، تَارِكاً خَلْفَه سَحَابةً مِنْ دُخَان أسْوَد.

وَحِينَ انْقَشَعَتِ الغَمَامَةُ التَّنَكُّرِيَّةُ، أَخَذَتْ وَرْدَةُ تُنَادِيهِ وَتُنَادِيه بِصَوْتٍ عَذْبٍ حَنُون.

ـ لَا تَخَفْ يَا عَزِيزِي.. لَنْ أَمسَّكَ بِسُوء.. أَنَا أُحِبُّ الحَيَوانَاتِ كُلَّهَا، وَأَوَدُّ أَنْ تَكُونَ صَدِيقاً لِي.. فَهَلْ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ صَديقي ؟

واسْتَحْلَى الأُخْطُبُوط الصَّغِيرُ صَوْتَ وَرْدَة، فَأَطلَّ مِنْ ظَلاَم جُحْرِه بِعَيْنيهِ الحَزِينَتَيْن ونظرَ إِليها وهيَ تَمُدُّ له يَدَها داخِلَ الماء..

وَتَرَدَّدَ قليلا، ثم خرجَ بِحَذَرٍ يَدْفَعُ الأَرْضَ بِأَيْدِيه الثَّمَانِيَةِ..

وَسَمِعَ وَرْدَة تَسْأَلُه :

ـ مَاذَا تَفْعَلُ هُنَا وَحْدَك ؟ أَيْنَ أُمك ؟لِمَاذَا لَمْ تَذْهَبْ مَعَهَا إِلَى دَاخِلِ البَحْرِ سَاعَةَ الجَزْر ؟.

وَاقْتَرَبَ هُوَ مِنْ يَدِهَا، وَمَدَّ يَدَهُ فَلَمسَ أَصَابعَهَا بِمَصَّاصَاته المُسْتَدِيرَةِ فِي فُضُولٍ. وَحَرَّكَتْ هِيَ سَبَّابَتَها مُدَغْدِغَة ذِرَاعَه.. وَحِينَ رَأَى أَنَّ اليَدَ نَاعِمَةً وَهَادِئَةً زَحَفَ فَوْقَها، وَتَرَبَّعَ وَسَطَ كَفِّهَا المَفْتوحَة .

وَأَحَسَّتْ وَرْدَة بِسَعَادةٍ هَائِلَةٍ تَغْمُرُهَا، وَتُدْفِيءُ قَلْبَهَا لِثِقَةِ الأُخْطُبُوطِ الصَّغِيرِ بِهَا، وَرَغْبَته فِي اللَّعِب مَعَهَا.

وادْخَلَتْ يَدَهَا اليُسْرَى فِي المَاءِ بِهُدُوء، وأَخَذَتْ تَرْبُتُ عَلَى رَأْسِهِ النَّاعِمَة الشَّبِيهَةِ بِرَأْسِ شَبَحٍ فِي رُسُومِ الأَطْفَالِ المُتَحَرِّكَةِ، وتُخَاطِبُه، وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُها.

وَرَفَعَتْهُ فَوْقَ كَفِّهَا فَوْقَ سَطْحِ المَاءِ لِيَسْمَعَهَا، وَسَأَلَتْهُ :

ـ مَا اسْمُـــكَ ؟

وَصَدَرَ عَنْهُ صَوْتٌ يُشْبِهُ العَطْسَةَ الخَافِتَة، فَضَحِكَتْ وَرْدَة وَقَالَتْ :

ـ سَأُسَمِّيك إِذَنْ (آخْتو). هَلْ يُعْجِبُكَ هَذَا الإِسْمِ ؟

وَبِمُرُورِ الأَيَّامِ، وَكَثْرَةِ اللِّقَاءَاتِ بَيْنَهُمَا بَدَأَتْ وَرْدَة تَفْهَم لُغَةَ آخْتو مِنْ خِلاَلِ هَمْسِه، وَفَحِيحِهِ، وَشَخِيرِهِ، وَحَرَكَاتِ أَذْرُعِه الثَّمَانِيَةِ.. وَصَارَا صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْن.

لِذَلِكَ كَانَتْ وَرْدَة تُرَحِّبُ بِكُلِّ فُرْصَة لِلنُّزُولِ إِلَى الشَّاطِيءِ، أَثْنَاءَ الجَزْرِ، لِلِّقاءِ بِصَدِيقِها البَحْرِي الصَّغِير.

- 3 -

وفي هَذَا المَسَاءِ، جَلَسَتْ عَلَى حَافَّةِ البِرْكَةِ كَالْعَادَةِ، وَمَدَّتْ يَدَها فأمْسَكَ اخْتَو بِأَصَابِعِهَا، وَأَخَذَتْ هِيَ تُلاعبه، وتُنَاغِيه.

وَبَيْنَمَا هِيَ كَذَلِكَ غَارِقَةٌ فِي السَّعَادَةِ والحُبُور، إذْ أَظْلَمَ مِنْ حَوْلِهَا المَكَانُ، وَفَزِعَ الأُخْطُبُوط الصَّغِيرُ، فَنَفَثَ في يَدِها دُخَانَه الأَسْوَدَ وَمَرَقَ كالسَّهْمِ فِي اتِّجَاهِ جُحْرِه.

وَرَفَعَتْ وَرْدَةُ رَأْسَها فإِذَا خَمْسَةُ أَوْلادٍ مِنْ شَدَادِ غِلْمَانِ البَسَاتِينِ المَجَاوِرَة، يُحِيطُونَ بالبِرْكَة وَفي أَيْدِيهِمُ العِصِيُّ المُدَبَّبَةُ، والشِّبَاكُ، وعُلَبُ الصفيح لِجمْعِ ما يَصِيدُونَه مِن حَيَوانِ البَحْر.

وكان على رأسِهِم وَلَدٌ اكبرُ منهم سِنّاً يُطْلِقُونَ عليه لَقَبَ (شَعْكُوكِ) لِتَراكُم شَعْرِهِ فَوْقَ رَأْسِهِ فِي شَكْلِ كُومَةٍ مُهْمَلَةٍ. وَكَانَ شَعْكُوكُ قَاسِياً جِدًّا عَلَى الحَيَوَانَاتِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا، وَخُصُوصاً مِنْها الأَسْمَاكَ الصغيرة، والقطَطَ، والسَّحَالِيَ، والسَّلاحِفَ، وَغَيْرَها.. كَانَ يَقْبِضُ عَدَداً كَبِيراً مِنَ الأَسْمَاكِ الصَّغِيرَةِ أَثْنَاءَ الجَزْر، وَحِينَ يَنْتَهي مِنَ اللَّعِبِ بِهَا يَرْمِي بِها على الرملِ، وهي حَيَّة، ويتركُها تَمُوت..

وكانت وردةُ تجمَعُها في عُلْبةِ صفيحٍ وتعيدُها الى البحر.. ولكنه حينَ كانَ يراها لم يكنْ يسمحُ لها بذلك.

وَتَكَلَّمَ شَعْكُـوكُ أَوَّلاً :

- وَرْدة، مَاذَا تَفْعَلِينَ هُنَا وَحْدَك ؟ مَعَ مَنْ كُنْتِ تَتَكَلَّمِين ؟



وَقَفَتْ وَرْدَةُ خَائِفَةً عَلَى صَدِيقِهَا الأَخْطُبُوطِ الصَّغِيرِ، وَقَالَتْ :
- لَمْ أَكُنْ أَتَكَلَّمُ.. هَلْ أَنَا حَمْقَاءُ حَتَّى أَتَكَلَّمَ وَحْدِي ؟
وَضَحِكَ أَحَدُ الأَطْفَالِ، وَكَانَ قَصِيرًا مُمْتَلِئاً، يُنَادونَه بعكوك :
- لَا تُحَاوِلِي الكَذِبَ عَلَيْنَا. فَقَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا كُلَّ شَيْء.
وَدَقَّ قَلْبُ وَرْدَة بِعُنْفٍ خَوْفاً عَلَى الأُخْطُبُوط، فَقَالَتْ :
- مَاذَا رَأَيْتُمْ ؟ هَذِهِ بُحَيْرَةٌ مِنْ آلافِ البُحَيْرَات..
فَقَالَ شَعْكُوكُ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ لِيفحَصَ البُحَيْرَةَ :
- بِمَاذَا كُنْتِ تَلْعَبِينَ بِيَدَيك ؟
وَحَمْلَقَ دَاخِلَ المَاء، وَرَفَعَ مِشْكّاً طَوِيلاً فِي شَكْلِ قَضِيبٍ حَدِيدي مُدبَّبِ الرَّأسِ، وَهَمّ بإِدْخَالِهِ في جُحْر الأُخْطُبُوطِ. وَامْتَقَعَ وَجْهُ وَرْدَة فَأَمْسَكَتْ بالمِشكِّ وأبعَدَتْه عَنِ الجُحْر صَائِحةً في وجْهِه :
- هذِهِ بُحَيْرتي أنَا.. أنَا أتَيْتُ إِلَيْهَا الأُولَى..
فنظرَ إِلَيْهَا شَعْكُوكُ باسْتِغْرَابٍ وَتَحدٍّ، وقال :
- البَحْرُ بَحْرُ اللّه.. وَلَا أَحَدَ يملِكُ مِنْهُ شيئاً.
ونزع منها المِشَكَّ، وانْحَنَى لِيدْخِلَه في الجُحْر، وَلَكِنَّ وَرْدَةَ انْبطحت عَلَى صَدْرِهَا وأَدْخَلَتْ يدَها فِي المَاءِ حَتَّى المِرْفَقِ، وَأَغْلَقَتْ بِكفِّها بابَ الجُحْر.
وَزَادَ فُضولُ الجَماعةِ وَهُمْ يَرَوْنَهَا حَرِيصَةً عَلَى إِخْفَاءِ مَا في الجُحْر، فَحَاوَلُوا رَفعَهَا وَإبْعَادَهَا بِالْقُوَّةِ، وَلَكِنَّها صَرَخَتْ، وَبَكَتْ.. وَرَكَلتْ، وَعَضَّتْ، وَخَدَشَتْ حتَّى ابْتَعَدُوا عَنْهَا جَمِيعاً مُسْتَغْرِبين مِنْ قُوَّتها وشَرَاستِهَا المُفاجِئة.
وَوَقَفَ شَعْكُوكُ مُصِرّاً عَلَى مَعْرِفَةِ مَا تُخفيهِ وَرْدَةُ فِي ذَلِكَ الجُحْرِ، وقال :
- اسْمَعِي يَا طِفْلة.. لَنْ نَتَحَرَّكَ مِنْ هُنا حَتَّى نَعْرِفَ مَا تُخَبِّئِينَ في ذَلِكَ الجُحْر. فارفَعِي يَدَك وإلاّ ثَقَبْتُهَا بهذا المِشَكّ !

فأعادتْ وردةُ مِنْ خِلَال دُموعِها :

ـ لَنْ أفعَلْ.. لَنْ أفعل.. لن أدَعَك تقتلُ هذا الحيوانَ المِسكين.. ماذا فعل لك ؟ أنتَ وَحْشٌ قَاسٍ !

وهَنا غَرَزَ شعكوكُ رأسَ المِشَكِّ الحديدي في كَفِّ ورَدَةَ، فصرخَتْ من الألَمِ، وَفَارَ الدمُ مِن كفِّها وَسَطَ البُحَيْرة واختلطَ بِمَائِها..

وحينَ رَأى شعكوكُ وَبقيَّةُ عِصَابَتِه ذلكَ خافوا، وانطلَقُوا هارِبينَ بين المروج، وأخذوا يَنْزَلِقُون ويسقُطُون فَتَنْسَلِخُ سِيقانُهم وَرُكَبُهُمْ.

وأخرجت وردة يَدهَا من الماءِ وَلَفَّتْهُ في مِنْديلِها، ووقفتْ تمسحُ دموعَها، وتنتظرُ صفاءَ ماءِ البُحيرة.

وعاد ماءُ البحيرةِ الى صفائه. ولكنَّ (آختُو) بَقِيَ خائفاً مُخْتبئا في جُحرهِ العميقِ المُظْلم، فَنَادتْهُ وردةُ بصوتٍ حنون :

ـ آختو.. آختو.. لا تخفْ.. أخرجْ الآنَ، فقد ذهبوا.. هل تسمعني ؟

وأطلَّتْ من ظلامِ الجُحْر عينانِ حزينَتَانِ، فأدخَلَتْ وردةُ يدها في الماءِ، وقالت :

ـ تعالَ.. إركَبْ كفِّي لِأذْهَبَ بكَ الى البحرِ العميقِ.. فقد يعودُ شعكوكُ وعِصَابَتُه.

وزحفَ آختو مُطيعا أوامرَ وَرْدةَ، وطلعَ فوقَ كفِّهَا الصغيرة، فرفعتْه فوقَ الماءِ برفقٍ حتى لاَ يخافَ، وعانَقَ هو يدَها واصابعَها بأيديه الثمانية، وألصَقَ مَصَّاصَاتِهِ بجلدِهَا حتَّى لاَ يَنْزَلِقَ ويسقُط.

وحملتْه هي عَبْرَ الصخورِ نحوَ البحرِ المفتوحِ، وهناكَ وضعتْه داخلَ الماءِ قائلة :

ـ لا تَبْتَعِدْ كثيرا. انْتَظِرْ عودَةَ أمِّك. قريبا يبدأ المَدُّ ويمتليءُ البحرُ، وتعودُ أمك.

ورفع آختو إِحْدَى أيديهِ مُوَدِّعاً وردةَ، وشاكرًا لها فضلَ إنقاذِ حَيَاته من شعكوكٍ وعِصَابته.

ـ 4 ـ

وَلَمْ يكدْ (آختو) يغطِسُ في الماءِ حتى أحَسَّ بذراعٍ قويةٍ تنطَبقُ على خَصْرِهِ، وتجذبُه إلى تحت. وفتحَ عينيهِ تحتَ الماءِ غاضبا، فإذا به وجهاً لوجهٍ مع أمه (شُعلة).

كان آختو قد فتحَ فمَه ليصرخَ ويشتُمَ الذي امسكَ بِه، ولكنَّه عَادَ الى إقفالِه حينَ رأى أمَّه. وَضَمَّتْهُ شُعلةُ إليها بِأذرُعِها الثمانيةِ. واخذتْ تَمسحُ على رأسِه وتقول :

ـ الحمدُ لِله على سلامَتِك، يا ولدي ! لقد كدتُ أجُنُّ منَ الخوفِ عليكَ، وانا اسمعُ مِنْ هنا ما يدورُ بينَ شعكوكٍ وعصابَتِه الخبيثةِ، وبينَ تلك الفتاةِ الطيبةِ القلب. ما اسمُها يا نَجْم ؟

فانتَحبَ آختو متأثراً بلقاءِ أمه شُعْلَةَ، وقال :

ـ اسمُها وردة.. ولولاها لَقَتَلَنِي شعكوكُ بِمِشْكِهِ الحديدي. كانَ يريدُ أن يَطْعَنَنِي به، ولكنَّ وردةَ وضعتْ يدَها على جُحْري، فانْغَرَزَتْ رأسُ المِشْكِ في كفِّها، وَسالَ دمُها في الماء.. مِسْكينة !

فضَمَّتْهُ شُعلةُ إليها فرحةً بنجاتِه منَ الموت، وقالت :

ـ لابُدَّ أن وردةَ مِنْ مُحِبِّي الحيواناتِ.. ولابد أنْ نُجَازِيَهَا على دِفَاعِها عنك.

ـ كنتُ سَأقْتَرِحُ ذلكَ عليكِ يا أمي، ولكن كيفَ نُجازيها ؟

فَحَكَّتْ الأمُّ رَأسَها مُحْتارَةً، ثمَّ قالت :

ـ لا أدري.. سَنَجِدُ طريقةً ما.

فانْفَصَلَ آختو عَنْ أمِّهِ مُتَحَمِّساً وقال :
- أنَا أعــرِف.
- مــاذا ؟
- نَقدِّمُ لوردةَ هَديــّة.
- ما هيَ الهديـــة ؟
- نَمْلأ لها زجاجةً كبيرةً من دُودِ الحَجَرِ الرَّمْلي الذي يعْجِبنَا.
ونظرَ الى وجْهِ أمِّهِ لِيَرَى أثَرَ اقتراحِه عَليها ، فَبَرَدَ حَماسُه.. لمْ يرَ على وجهِها الحماسَ الذي توقَّعَهُ.
قالت شَعْلَــة :
- اقتراحُك وَجيه.. وَلَوْ كانتْ وردةُ اخْطبوطاً مِثلنا لوافقتكَ عَليه في الحال.. ولكنها آدميةٌ.. هل فهمتْ ؟
فحرَّك آختو رأسَه فاهِماً.. وأضَافَتْ شَعلة :
- ليسَ كلُّ ما يعجِبنَا نحنُ يُعْجِبُ الآخَرين.
فسأل آختـو :
- وكيف نعرفُ ما يعجبُها إذَنْ ؟
- نسألُ اهلَ العِلْمِ والتجْرِبة.
وأمسكتْ بيدِ ابنِها وَذهبت تبحثُ عن حُكَماءِ الأسْماكِ في الأعْماق.

ـ 5 ـ

أما وردةُ، فعادَت الى منزلِها تجري وتقفزُ من الفَرَحِ والسعادَة بنجاةِ الاخطبوطِ الصغير (آختو) من موتٍ مُحَقَّق. كانتْ تريدُ الوصولَ الى الدارِ بصبرٍ فارغٍ لِتَحْكيَ لأبيهَا وأمّهاً عن مغامَرتها الجديدة.

ودخلت الكوخَ تجري وَتَلْهَثُ فقابَلَتْهَا أمُّهَا بوجهٍ عابسٍ مُرْهَقٍ، وصاحَتْ فيها :

ـ أينَ تأخرتِ حتّى هَذهِ الساعة ؟

ولم تكدْ وردة تجيبُ حتى رأتْ عَلائِمَ الغَضَبِ المُتَزَايِدِ على وجْهِ أمها وهي تنظرُ إلى ملابسها. ونظرتْ وردة الى حَيْث كانت تنظرُ أمُّها، فإذا كُسْوتُها الوحيدةُ مُغَطَّاةٌ بطينِ البَحْرِ، ومائِهِ المالِح.

قالت أمهـــا :

ـ انظرِي أيَّتُهَا الشَقيةُ الى ما فعلتِ بِفُسْتَانِكِ الوَحيد ؟ كأنَّ تَصْبينَ الناسِ لا يكفي، فَتوسِّخينَ انتِ مَلابِسَك !

وامسكتْها من يَدِها واخذتْ تضرِبُها على وَرِكِها، ووردةُ تبكي وَتَسْتَعْطِفُهَا بحرارة :

ـ لم أفعلْ ذلك عَمْداً، يا أمِّي.. فقد زَلَّتْ قدَمَايَ وسقطت.

ـ ولكن لماذا تذهبينَ الى البحرِ ؟ ألمْ أقلْ لكِ مِراراً ألاَّ تَذْهبي ؟

وَبَعْد ان اشْبَعَتْهَا ضَرْباً، أوقفتْهاَ امامَها، واخذت تخلعُ لهَا الفُسْتَانَ.

ومن داخلِ الكوخِ، جاءَ صوتُ ابيها ينادي ضعيفا :

ـ حفصـــة.. حفصـــة !

فقالت حفصةُ لابنتها دافعةً اياها نحو باب الكوخ :

- خُذِي فوطةَ والتفّي بها، وانظري ماذا يريدُ أبوك.

ودخلت وردةُ شبهَ عاريةٍ كوخَ أبيها، والتَفّتْ بفوطةٍ، وذهبتْ إليه، فسألَها منزعجاً :

- لماذا تضربُكِ أمّكِ ؟

فأجابتْ وهي تنتحِبُ :

- لأنّني سَقَطْتُ في البَحْرِ، وَوَسَّخْتُ مَلابسي.

فمدَّ يديه نحوها وقال :

- تعالي.. تعالي، يا عَزيزتي.

واقتربتْ منه، وانحَنَتْ عليهِ لِتقبّلَهُ، فَضَمَّها الى صَدْرِهِ بِحَنَانٍ كبير :

- مسكينةٌ أمُّك.. لا تلوميها، فهي لا تعرفُ الراحةَ.. وليسَ لها من يساعدُها. حينَ أشفَى أنا، اِن شاء اللهُ من مَرَضي، سأشتَري لكِ عشراتِ الفساتينِ، وسأكتري خادماً لمساعَدَةِ أمكِ على اعمالِ البيتِ.

واشارَ الى الحَشِيَّةِ الى جَانبِه، وقال :

- اجلسي إلى جانبي، واحْكِي لي مَا رَأيْتِ في البحر.

فجلستْ الى جانبه، وأخذت تحكي له عن مُغامَرَتِها مع (آختو)، وقد بَرَقَتْ عيناها من السرور، ونَسِيَتْ ضربَ أمِّها لَها.

ـ 6 ـ

أَمَّا آختو وأُمُّهُ شُعلة، فقد ذَهَبَا يبحثانِ عن أحدٍ يعرفُ ما يُعجِبُ الانسان.

وفي الطريقِ الْتقيَا بالعَقْرَب، وهي سمكةٌ رَمْلِيةُ اللونِ كبيرةُ الرأس، فَتَوقَّفا لِيَسْألاَهَا، قالت شُعلة لِابْنِهَا آختو :

ـ تعالَ نَسْأَلُ العقربَ.. فلابد أَنّ تعرِفَ الجَوَاب.

ـ لمــاذا ؟

ـ لأن رَأسَها كبيرةٌ، ولابد أن يكونَ مُخُّها كذلك.

وتقدمت شُعلة نحوَها :

ـ مساءُ الخيرِ عَمَّتي العقرب.

ففتحت العقربُ عينيها الناعستين، وسألت :

ـ ماذا تُريدين ؟

ـ أريدُ أن أسألَكِ عَمَّا يُعجِبُ الانسان.

ـ لمــاذا ؟

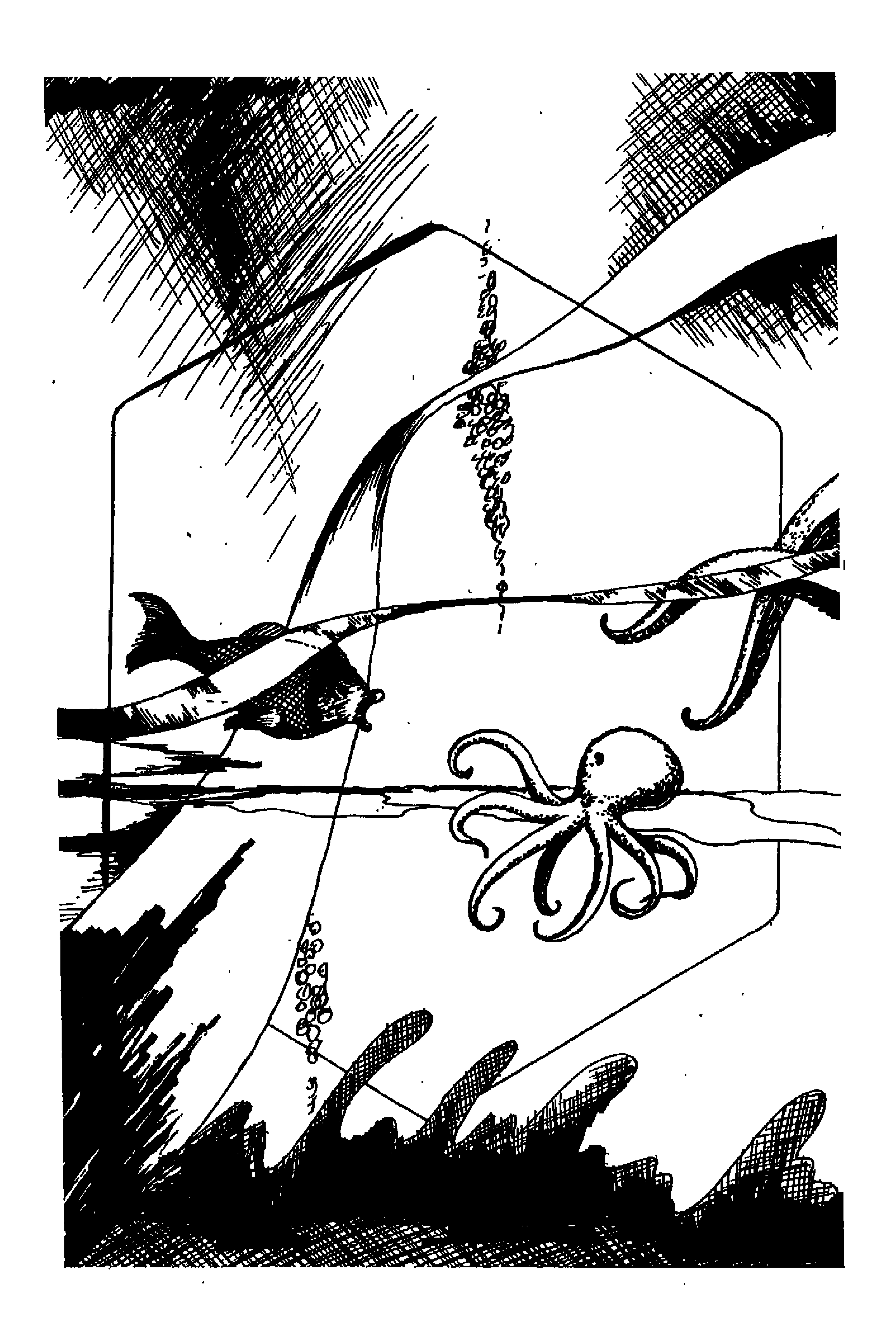
ـ لأنَّ إنسانةً أنقذَت وَلدي آختو، وأُريدُ أنْ أُقَدِّمَ لها هديةً تُعجِبها.

ففتحت العقربُ فَماً كبيراً في حجْمِ رَأسِها، ونظرت إلى آختو الصغيرِ، بِشَهِيَّةِ الجائعِ، وقالت :

ـ وماذا ستُعطينَنِي إذا قلتُ لك ؟

فقالت الأم :

ـ سأُقدِّم لك تشكُّراتي الخالِصَة.



- يَفْتَحُ اللّه.. أنا لا آكلُ التشكرات !
- وماذا تُريدين ؟ أُطلُبي ما شِئت.
- حَقّــاً ؟

وفتحتْ العقربُ فَمَها الكبيرَ، وابتلعتْ آختو دفعةً واحدة.

ولكنَّ أمَّهُ شُعلة لم تُمْهِلْهَا، فَارْتَمَتْ عليها، وَطَوَّقَتْ بِأَذْرُعِهَا الثمانيةِ القويةِ عُنقَهَا.

ووجدَ آختو نفسَه داخلَ ظُلْمةِ بَطْنِ العقربِ، فَنَفَثَ دُخَانَه الكَثِيفَ، وأَخَذَ يُدْخِلُ أَذْرُعَهُ الثمانيةَ في كلِّ ثُقْبٍ يُصَادِفُه..

وشَعُرَتْ العقربُ بانْحِبَاسِ أَنفاسِهَا، وانْسِدَادِ خَيَاشِيمِهَا، وأُصِيبَت بالغَثَيانِ منَ الدُّخَان الذي مَلأ بَطْنَهَا فَتَقَيأَتْ آختو.

وابتعدَ هو عن الفَمِ الكبيرِ، وانْضَمَّتْ إِليهِ أمُّه شُعلةُ غاضبةً من تَصَرُّفِ العقربِ الهَمَجِيِّ، وهي تقول :

- يا لَهَا مِنْ عقربٍ بليدة ! أنا ما أزالُ أقولُ لها إنني أريدُ أن أُكافيءَ الإِنْسَانةَ على إنقاذِ إبني وإذا بها تَبْتَلِعُه !

فَرَدَّ آختــو :

- ليسَ كُلُّ ذي رأسٍ كَبيرةٍ ذَكِياً !
- صدقت يا ولدي.. المظاهر تخدع !

ومَشَيَا في طريقهما، فإذا بِسِرْبٍ من البُوري يَمرُّ من فوقهما.. فتوقَّفتْ زَعِيمةُ السِّرْبِ لتُحَيِّيَ شعلة التي كانت تَعرِفُها :

- مساءُ الخيرِ يا شُعلة.. إِلى أينَ أنتِ ذاهبةٌ بابْنِك ؟
- إننا نبحثُ عن شيءٍ يُعجبُ الانسانَ لِنقدِّمهُ هدية.

فَشَهقتْ البُوريةُ، ونظرَتْ إِلى زَميلاتها :

- هلْ سَمِعْتنَّ ؟ هَذا آخِرُ الزمان.. عَمَّتي شُعلة تريدُ إهداءَ شيءٍ لِبَنِي الإِنسان!

فسألتْ إحدى البوريات :

ـ ولكنْ لماذا ؟ إذا كانت تريدُ مكافأتَهم على ما يفعلون بِنَا نحن جنسَ السَّمَكِ، فَعِنْدي اقتراح.

واجتمعتْ عليها البورياتُ الأُخرياتُ سائِلاتٍ بِفُضُول :

ـ ما هُوَ اقْتِرَاحُـك ؟

ـ قريباً من هنا تُوجَدُ قنبلةُ أعْمَاقٍ منْ عهدِ الحربِ، ما تزالُ صالحةً، نَلُفُّهَا لَهَا لِتقدِّمَهَا لِصَديقِهَا الآدَمي.

فَتَضَاحَكَتِ البوريات.. وَعَقَّبَتْ كُبْراهُنَّ :

ـ حقيقةً أمرُكِ عجيبٌ، يا أمَّ آختو! الانسانُ لا يستحقُّ أيَّ إكرام.. أنظُرِي إلى ما يَفْعَلُ بنا نحنُ البوريَ مثلاً، رغْمَ أننا أذْكَى الأسْمَاكِ، وأعْرَفُ بِحِيَلِهِ. إننا نعرفُ أنه يُدَلّي لنا طُعْماً لذيذا وبِدَاخِلِهِ صَنَّارَةٌ. فاذا ابتلعناه دخلتْ الصنارةُ خَيَاشِيمَنَا، أو شِفَاهَنا، أو بُطُونَنا، وأمسَكَ هو بنا.. لذلكَ لا نأكلُ الطعمَ دفعةً واحدةً، بل نَنْتِفُهُ نتفاً حتّى نَأتِيَ عليه. ولكنّه فَطِنَ لذلك فأخذ يضَعُ تحتَ الطُّعم ما يُسَمَّى (بالخَطَّافَة).

فسأل آختــو :

ـ الخطافــة ؟

ـ نعم.. وهي مكَوّنةٌ من أربَعِ صنانيرٍ كبيرةٍ.. وكلَّما اقتَرَبَ بعضُنا من الطُّعْمِ خَطَفَهُ من بطنِه.

فشهقتْ البورياتُ الأُخْرَيَاتُ، وكذلكَ شُعلةُ من الفَزَع.. ولكنَّ آختو تَدَخَّلَ :

ـ ولكننا لا نريدُ الهديةَ لذلك النوعِ من البَشَر. بل نريدُها لإنسانةٍ تُحِبُّ الحيوانَ، وتَعْطِفُ على الأسماكِ الصغيرة.. وقد أنْقَذَتْ حياتي حينَ حاوَلَ شَعكوكُ وعِصابَتُه غَرْزَ المِشَكِّ في بَطْني.

واستمعتْ إليه البورياتُ بِفُضُولٍ، وتدَخّلتْ شُعْلة :

ـ صحيحٌ ما قالَه آختــو..

فَشَهقت زعيمةُ البُوري وقالت :

ـ (عِشْ رجباً تَسْمَعْ عجباً).. أنا لا أُصَدِّقُ من هذا كَلِمَة..

وأشارتْ برأسِها الى زميلاتِها فتَبِعْنَهَا، وبَقِيَ آختو وأمُّه وحدَهُما، فأمسكَ بإحْدى أيديها، وأخَذَ يَجُرُّها، فقالت :

ـ لاَ ينْبَغِي انْ نتحَرَّكَ من هُنا حتَّى نعرِفَ أينَ سنذهَبْ.. وما كان يَنْبَغِي أَنْ نبدأَ الطريقَ حتى نُحَدِّدَ الهدَفَ، عملاً بقولِ الآيةِ الكريمة : (واقْصِدْ في مَشْيِك).

فَجَرَّها من يدِها قائلا :

ـ وأنا أقول : (تَحَرَّكُوا تُرزَقُوا). عملاً بالحديثِ الشريفِ. فنحنُ نَعْرِفُ ما نُرِيدُ، ونَبْحَثُ عنه..

ـ ولكنْ في أيِّ اتِّجَاه ؟

وبينَما هُمَا يتناقشان، اذْ سَمِعَا صوتاً غريباً شبيها باقْتِرابِ زَوْرَقِ صيدٍ، فاحْتَضَنَتْ شعلةُ صغيرَها والتصَقَتْ بالارضِ.. ورفعت عينيها فإذا حُوتٌ سيفٍ كبيرٌ يسبَحُ فوقَهما، وكانتْ شعلةُ تعرِفه.

فقالت لإبنِهَا :

ـ لا تَخَفْ يا آختو.. إنَّهُ القائدُ أبُو سَيْف..

ونظرَ آختو الى جِسْمِ الحوتِ المُمتَدِّ كبطنِ زَوْرَقٍ فوقَهُمَا وفَتَحَ فَمَهُ إعجاباً بقوَّتِهِ، وقال لأمه :

ـ تعالي نسأله.. لابد أنه يعرِفُ ما يُعْجِبُ الانسان.

ـ القائدُ ابو سيفٍ مُحاربٌ شُجاع.. ولكنه لمْ يُدَرَّبْ إلاَّ على تَلَقِّي الاوامرِ وتنفيذِها. ولا أعتَقِدُ انه يَعْرِفُ في هذِه المسائِل الثقافية. فلا ينبغي ان نُحْرِجَهُ بسُؤالِنا.

ولكنَّ آختو ألَحَّ في سُؤالِهِ لِمُجَرَّدِ النَّظَرِ إليهِ من قريبٍ، فنَادَتْهُ شعلة:

ـ حَضْرَةَ القائدِ أبي سَيف.. يا أبا سَيف !

فتوقَّفَ الحوتُ الكبيرُ والْتَفَتَ حَواليه :

ـ مَنْ ينـادي ؟

ومِنْ تَحْتِه جاءَه صوتُ شُعلةَ رقيقًا :

ـ أنا، يا عمّي أبَا سَيْف.. أنا تَحْتَك.
فنظرَ الى تَحْتَ، ونَزَلَ لِيَتَساوَى مع شُعلةَ وآختو :
ـ أهلاً.. أهلاً شُعلة ! مَنّ هذا الذي مَعَك ؟
ـ انه ابني آختــو.
ـ اهلا وسهلا.. ماذا تفعلينَ هنا في هذه المياهِ العميقَة.؟ بِلادُكُم على الشاطيء..
ـ جئتُ لأَبحثَ عن شيءٍ يُعْجِبُ بَني الإنسان.
فَضَحِكَ المُحارِبُ الكبيرُ ضَحْكةً خَشِنَة، وقالَ مُسْتَغْرِباً :
ـ يا لَهُ من عَمَلٍ غَريب.. ولِمَاذا تُرِيدِينَهُ ؟
ـ لإِهْدائِهِ لِطِفْلَةٍ بَشَرِيَّةٍ أنقَذَتْ إبني هذا مِنَ الموت.
فضحِك الحوتُ القويّ، وقال :
ـ هذهِ أغْرَبُ مِنْ أُختِها ! لأَولِ مَرَّةٍ أَسْمَعُ بإِنْسانٍ يُنقِذُ سَمَكَة. نحنُ بالنّسبَةِ إليهِمْ حيواناتٌ مُباحَةٌ لِلصَّيْدِ والاكل، وليسَ لنا روحٌ، ولا عَقْلٌ، ولا عَواطِف. فَهُمْ ما يَفتأونَ يَنصِبونَ لنا الشِّباك، ويَطْعَنونَنا بالحِرابِ والسِّهام، وَيَغْرِزُونَ فِينا الشُّصُوصَ والصنانيرَ.. ولكنْ لا يمكنُ أن نلومَهم.
فقاطعَهُ آختو مُنْفَعِلاً :
ـ لا نَلومُهم ؟ بَعْدَ كلِّ ما قُلتَ عَنْهُمْ ؟
فَرَدَّ أبو سيفٍ بِحِلْمِ الأبِ الرَّؤوم :
ـ حقّاً يا وَلدي هناكَ بعضُ التناقضِ فيما قُلتُ، ولكنَّ الحِيتَانَ والأَسماكَ تَتَصَرَّفُ مَعَ الإِنْسانِ بِنَفْسِ الطريقَةِ.. بَلْ حتى مَعَ نَفْسِها.. نحن معروفون بأَنَّنا حيواناتٌ مُفْتَرِسَةٌ، وبأن قَوِيّنا يَأكُلُ ضَعِيفَنا.. وَهَذِهِ سُنَّةُ الحياة..
وتنحنَــح ثم قال :
ـ وبِالمُناسَبَة.. وحتّى لا نَخْرُجَ عنِ الموضوع.. أنا أَعرِفُ ما يُعْجِبُ الانسان..
فسألتْ شعلةُ بِتَطلّــع :

ـ ماذا يا عمّي أبَا سيف ؟ لَقَدْ أعْيانا البَحْث.

فقـال :

ـ أَشْهَى أُكْلَةٍ عندهُمْ هي لَحْمُنَا نحنُ حيتانَ السَّيف والتُّون.

وَضَحِك مازِحاً وأضاف :

ـ ولكنني لا أنوي تقديمَ نفسي هديةً لأيِّ كان، حتى ولو انقذَ حَياتي. ولكنِّي اقترحُ مُكافَأةَ هذه الطفلةِ الآدَمِيّة بطريقةٍ اُخرى :

فسألتْ شعلةُ خائبةَ الأَمَلِ مِنْ مزاحِه :

ـ ومـا هــي ؟

فرفعَ سيفَه وَلَوَّحَ بِه لَهُماَ، وقال :

ـ إذا كان لَهَا عَدُوٌّ، فما عليها إلاّ أن تَدُلَّني عَليه لأَطْعَنَه بسيفي هذا.

وارتفعَ عن الارضِ بِخِفَّةٍ تعجَّبَ لها آختو، رَغْمَ ضَخَامة بَدنِه، وانطلَقَ كصَاروخ نحوَ كثيبِ رملٍ فطعَنَه بسيفِه حتى شَقَّهُ شَطْرَين، وعاد ليقفَ امامَ شُعلة وآختو :

ـ هكذا ! ما رأيكما ؟

فَصَفَّق له آختو بأَدْيه الثمانيةِ، ووقفَ يَقفِزُ في مَكانِه ويصيحُ :

ـ عظيم ! عظيــم !

ويثيرُ حواليه الرِّمالَ، وأمه تضحكُ من حَماسه، وتصفقُ هي الأُخرى بيدين فقط، وأعادَ الحوتُ سؤالَه، فقالت شُعلة :

ـ لا اعتقدُ ان لِصديقَتِنا الآدَمِيَّة أعداءٌ بهذا الحجْم.. على الأقل في البحر.. ولكن شكرا على اقتِرَاحك على أيِّ حال..

وهنا وَدَّعَ القائدُ أبو سيفٍ ضاحكاً مازحاً، وانصَرَف.

ـ 7 ـ

وَفجأةً احسَّ آختو بالجوعِ والتعبِ والنومِ، فأخذَ يبكي.. وسألته أمه :
ـ ماَلكَ ؟
فأخذَ يجرُّها من إحدى أيديها ويَنْتحِبُ :
ـ تعَالي نعُدْ إلى دارنا.. اريدُ ان أتعشّى وأنام..
فضحكت أمه وقالت :
ـ ألاَ تريدُ ان تبحثَ لِصديقتكِ وردةَ عَنْ هَدية ؟
ـ نبْحثُ عنها غدا..
فرَبَتَتْ على رأسِهِ بإحْدى أيديها وقالت :
ـ لا نستطيعُ الرجوعَ الى دارِنا الآن.. فقد ابتعدنا عنها كثيرا..
ولكن خالتي تسكنُ قريباً من هنا، فلنذهبْ لِزِيارَتِها وقَضَاءِ الليلِ عندها.
وناما تلكَ الليلةَ عندَ الخَالـة.

ـ 8 ـ

وفي الصباحِ، استيقظَ آختو مَعَ أولِّ أشِعَّةِ الشمسِ التي اخْتَرَقَتْ سطْحَ الماءِ، وخرجَ الى الحارَةِ يلعبُ مع صِغَارِ الإِرْبَيَانِ، والسَّرَطَانَاتِ، وَيداعِبُ القَوَاقِعَ، والمَحَّارَ، وفِرَاخَ الحَجِيلَةِ، وابي نَتَّافَ، وَيأكُلُ من فَوَاكِه المنطقة الشهيَةَ.

واجتمعَ عليه صغارُ الأَسماكِ يسألونَه من أين جَاء، ولِمَاذا، فقال لهم :

ـ جئتُ من بلادِ الشواطيء.. وبالضبطِ من مكان يسمَّى «الضَّايَةَ» على شاطيءِ مدينةٍ بشريةٍ على اليابِسَةِ تُسمَّى «أصيلة» جئنا أنا وأمي لنبحثَ عن شيءٍ يُعْجب الانسانَ لنقدمَه هديةً لفتاةٍ آدميةٍ انقذتْ حياتي..

فانْدَهَشُوا جميعا لِسَمَاع قصَّةِ آختو..

واغْتَنَمَ هو الفرصةَ فسألهم :

ـ هل تعرفونَ ما يُعجِبُ الإنسان ؟

فنظرَ بعضُهُم الى بعضٍ، وحرَّكوا زَعَانِفَ أكْتَافِهِمْ غيرَ عَارفين.

وحينئذٍ خرجتْ من بينِهِم سمكةٌ نحيفةٌ شَفَّافَةُ الجِسْمِ، كبيرةُ العينين، وقالت :

ـ أنا أعْــرِف.

فانْفَجَرَتْ الجماعةُ ضاحكةً، وَأخذوا يَضْرِبُون بِذيولِهِم الرَّمْلَ أمَامَ وجهِهَا، وَيَتَغَامَزُونَ عليها قائِلين :

ـ ها ها ها ! أنْصِتُوا إِلى شَاحِبْ.. إِنَّهَ يَعْرِفُ ما لا نَعْرِفُه !

وَتَدَخَّلَ آختو لإنقاذِ شَاحبٍ النَّحِيلِ قائِلا :
- دَعْــوهُ يتكلم..
ونفضَ شاحبُ عينيهِ من ذَرَّاتِ الرملِ، وَبَلَعَ رِيقَهُ بصُعوبَةٍ وقال :
- أنا لا أعــرِف..
وانفجرتْ الجماعةُ ضاحكةً مرةً أخرى، وهيَ تقولُ لآختو :
- أَلَمْ نَقُلْهَا لَــك ؟
فَقَاطَعَهُمْ آختو قائلا :
- دَعُوهُ يُتِمُّ كَلَامَــه..

وحينَ سَكتوا، نَظَرَ إليهِم شاحِبٌ بعينين حَزِينَتَيْنِ وقال :
- .. ولكني أَعرفُ مَنْ يَعْرِف.
ورفع آختو يَدَيْنِ من أيديه لِيُسْكِتَ الجَمَاعَةَ، وقال :
- من يعرِفُ يا شَاحِب ؟
- (مُذْهَبَــــة).
وَشَهِقَ بعضُ أَسْمَاكِ الجماعة، وتَسَاءلوا بينهم :
- كيف لَمْ نُفَكِّرْ في ذلك ؟
وسأل آختو :
- مَنْ هي مُذْهَبَةُ هذه ؟
فقال شاحــب :
- انها سمكةٌ ملوَّنةٌ عاشتْ مُدةً طويلةً في زُجَاجةٍ مع عائلةٍ بَشَرِية. وحين كَبُرَتْ حَرَّرُوها.
- أينَ يُمْكِن ان نَجِدَها ؟
فَتَطَوَّع شاحِــب :
- أنا آخذُكَ إليها.
وخرجَ من بينِ الجماعةِ فتبِعَه آختو، وسارَا حتى وَصَلا الى جُحْرِ السمكةِ المذهبةِ، ووقفَ شاحب فَنَادَاها.. فخرجَتْ مِن جُحْرِها المُظْلِم،

ووقفتْ امامَهُمَا. وما كادَتْ أشِعَّةُ الشمسِ تَقعُ عليها حتى اضاءَتْ ما حَوْلها بجميعِ ألْوانِ قَوْسِ قُزَحَ..

ووقف آختو ينظرُ إِلَيْهَا مَبْهُوراً فاغِرَ الفَمِ. فابتسمتْ لَهُ سعيدةً بإِعجَابِهِ بجمالِها، وسألتْهُ بلطف :

- اهلا وسهلا بِكُمَا.. منْ هو صديقُكَ الجديدُ، يا شَاحب ؟

- إِسْمُه آختو.. وقد جاءَ هُوَ وأمُّه مِن بلاد الشواطيءِ بحثاً عن شيءٍ يعجبُ الانسانَ. وقد جئتُ به اليكِ لعلّكِ تُجِيبِينَ عن سُؤالِهِ.

وسألت مذهبة :

- ولكنْ لِماذا تريدُ معرفةَ ما يُعجبُ الانسان ؟

فَرَدَّ آختو وقد زالتْ دَهْشَتُه :

- نريدُ تقديمَ هديةٍ لصديقةٍ آدميةٍ انقذَتْ حَياتي.

- هذا عملٌ جميلٌ يا آختو.. الاعترافُ بالجميل فَضيلة.

- فهل تعرفين ما يعجِبُ الانسان ؟

فحرَّكَتْ مذهبةُ رأسَها، وأجابت :

- ليسَ هناكَ شيءٌ واحدٌ يُعجِبُ الجنسَ البشري بأسْرِهِ.. فهوَ حيوانٌ مُعقَّدٌ، وليسَ مِثْلَنَا نحنُ الاسماكَ، وَمِمَّا استطعتُ مَعْرِفتَهُ مِنْ طُولِ تَجْرِبَتي واقامتي في غرفةِ جُلوسِ عائِلةٍ بشريةٍ أنَّ اذواقَ الآدَميينَ تختلفُ.. فَمِنْهم من يُحِبُّ المالَ، والذهبَ، والأحْجَارَ الكَريمةَ، وهؤلاءِ هُمْ الأغْلَبيةُ، ومن بينهم الإنَاثُ..ومنهم من يُحِبُّ العِلْمَ، والأدبَ، والفنَّ، والحِكْمَةَ، ومنهم من يُفضِّلُ السُّلْطَةَ، والشُّهْرَةَ، والجَاهَ، ومنهم من يَعْشَقُ الرِّياضَةَ، والسِّياحةَ، ومُجالَسَةَ الناسِ، ومنهم..

فحرَّك آختو رأسَه دَائِخاً وقال :

- لَمْ أفْهَمْ شيئاً من هذا..

فقال له شاحب :

- أَلَمْ أَقلْ لكَ إِنَّها تعرِف كلَّ ما يتعلَّقُ بِبَني الإِنسان ؟

فقال آختو :

ـأنا اريدُ جواباً بسيطاً لسؤالٍ بسيط.

فأجابت مذهبةُ :

ـ سؤالك غيرُ بسيط.. عَلَى كُلِّ حال، أَنَا آسفةٌ على إرْبَاكِكَ بهذا الشَّكْلِ.. فَدَعْني أفكرُ في هَدِيَّةٍ مُنَاسبةٍ لصديقتك.

وفكرتْ قليلاً وهي تدورُ حولَ نفسِها ثمَّ سألَتْ آختو :

ـ كَمْ سنُّ صديقَتك هذه ؟

ـ لا أدْري، ولكنَّها طِفْلَةٌ في طولِ تِلْكَ الشَّجرة..

وأشَارَ إلى شَجَرَة قصيرةٍ قريبة.

وعادتْ مذهبةُ تدورُ حولَ نفسها ثُمَّ واجَهَتْ آختو وقالت :

ـ وَجَدْتُهَا. خُذْ لَهَا حِلْيَةً تلبَسُهَا.

فسألَ آختو غَيْرَ فاهم :

ـ وما هي الحِلْيَةُ ؟ وأينَ أَجِدُها ؟

فَعَضَّتْ مُذَهَبَةُ على شَفَتِهَا العُلْيَا وقالت :

ـ سَمِعْتُ من بَعْضِ الشيوخِ أنَّ هناكَ سَفينةً قديمةً تَتَحَدَّثُ عنها الأساطيرُ غَرِقَتْ في عَرْضِ الأُقْيانوس، وكانتْ تحملُ كُنوزاً من أمريكا اللاتينِيَةِ إلى إسْبَانْيا.. وما تَزَالُ هُناكَ بجميعِ ما كانت تحمِلُهُ من كُنوز.

فسألها آختو :

ـ ولكنْ من سَيدلُّنا على هذهِ السفينة ؟

ففكَّرتْ مذهبةُ قليلا وقالت :

ـ هناك مرينةٌ عجوزٌ جدا، تعيشُ على بُعْدِ ثلاثةِ ايامٍ بلياليها من هنا في اتِّجاهِ الجَنوب، تعرفُ مَوقعَ السفينةِ الغريقةِ. فاذا عَثَرْتُمْ عليها وكانت ما تزالُ على قَيْدِ الحَياة، يُمْكِنُ انْ تَدُلَّكُمْ عَلَى مَكَانها.

وَهَمَّ آختو بالخروج، فاسْتوقفَهُ شاحِب ليسألَ مُذهبة :

ـ ولكنْ ما اسْمُ هذهِ المَرينَةِ العجوز ؟

ـ إسْمُهَا (خُناثَة)..

- هذا اسْمٌ شائِعٌ بين المَرَاين، فَمَا هِيَ أوْصَافُها ؟

- إنها عَجُوزٌ مُسِنّةٌ جدا. وقَدْ فَقَدَتْ اسْنَانَها وبَصَرَها، ولـهـا شَعْرٌ طويلٌ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ، فيقالُ : (شعر خَنَاثَة، يُغَطِّي ثَلاثَةَ).

وَهَمَّ آختو بالانْصِرَافِ، فاسْتَوْقَفَهُ شَاحِب مَرَّةً أُخْرَى مُصِرّاً على التّدْقِيق وسأل :

- وفي أيِّ مدينةٍ من مُدُنِ البَحْرِ تَسْكُنُ ؟

- اذا لمْ تَخُنِّي الذاكرةُ، فهي تسكنُ في مدينةِ (الأغْوار).. والجميعُ يَعرِفُها هُناك.

وَلَمْ تُخْفِ إعجابَها بِذَكَاءِ شَاحِب، فَرَبَتَتْ بِجَنَاحِهَا على رَأسِه وقالت :

- أنْتَ وَلَدٌ مُدَقِّقٌ، وسوفَ تَنْجَحُ في حَيَاتك..

وَشَكَرَ آختو السمَكَةَ مُذْهبة بِحَرَارةٍ قائلا :

- لا أدْري كيفَ أشكُرُكِ على هذهِ المعلوماتِ الثمينة..

فأجابتْ مُبْتَهِجَةً بِأدَبه :

- شُكْري هُوَ حِرْصُكَ على الاعْتِرَافِ بالجَميل.

وانطلقَ آختو وَخَلْفَهُ شاحِبُ إلى حَيْث كانتْ امهُ تنتظِرهُ في جُحْرِ خَالَتِها.

وحينَ أخْبَرَهَا بما فَعَل، فَرِحَتْ كثيرا، وَعَانَقَتْهُ، وقَبَّلَتهْ. وحاولَ هو الفَكَاكَ منها خوفاً من أن يظنَّهُ صَديقُه الجَديدُ شَاحِب، طِفلا صغيراً تفْرَحُ بِهِ النساء.

وَرَبَتَتْ خَالَةُ أمِّهِ عَلَى رَأسِهِ مُهنِّئَةً :

- عَافاك.. عافاكَ.. يا آختو.. إنك ولدٌ ذَكِيٌّ.

فَأشَارَ آختو الى شاحِب الذي لا يكادُ يُرَى لِشَفَافِيَةِ جِسْمِهِ، وقال :

- الفَضْلُ في ذلك يَرجِعُ الى صديقي شاحب هذا.

وحينئذٍ فقط رَأتْهُ الاخطبوطتان، فمدَّتا يدينِ من ايديهِمَا السِّتَّ عَشْرةَ لِمُصَافَحَتِهِ وَتَهْنِئَتِهِ.

وفي تلكَ اللحظةِ بالذَّاتِ، وَدَّعَتْ شعلةُ خَالَتَهَا، وأَمْسَكَتْ بإِحدى أَيدي ابنها آختو، وانْطَلَقَتْ نحوَ الجَنُوب.

ولمْ تكُنْ تتوقَّفُ إلاَّ عِنْدَ مُفْتَرَقِ طُرُقٍ مُتَشَعِّبٍ لتسألَ عن الطريقِ الصحيحِ الى مدينةِ الأغوار.

- 9 -

وفي مساءِ اليوم الثالثِ، وَصَلاَ مَشَارِفَ المدينةِ، وكانت تَقَعُ على حافَّةِ المِياهِ الزَّرْقَاءِ، أو ما يُسَمِّيهِ أسماكُ الشواطيءِ بالغَوْرِ السَّحيق.

ولمْ يجدَا صُعوبةً في العثورِ على جُحْرِ خُنَاثةٍ، فقد سأل آختو أوّلَ فَرْخٍ لَقِيَاهُ، فقال لَهمَا :

- تَعَالَيَا معي.. أنا بالصُّدْفَةِ ذاهبٌ الى دارِ عَمَّتي خُنَاثة.. فهي تَحْكِي لَنَا قِصّةً كلَّ أرْبعاء..

ففتحَ آختو عينَيْهِ الناعستَين لِلْمُفَاجَأةِ السَّارَّة، وصاحَ قافِزًا في مكانِه منَ الفرح :

- قِصّة ! حقيقة ؟ هل يُمكِنُ لي أن أسمَعَهَا أنا معكم ؟

فَحَرَّكَ الفرْخُ رأسَه غيرَ عارفٍ وقال :

- لا أدري.. فهي لا تَقْبَلُ من الصغارِ إلاَّ أصْحابَ النَّتائج والنُّقطِ الجيِّدَةِ في اختباراتِ وتَمارينِ الأسْبوع.. فكيفَ هِي نَتَائجُك..

وهُنا نَظَرَتْ إليه أمُّهُ نظرةَ عِتَابٍ وَتَشَفٍّ على كَسَلِه وتَهَاوُنِه في دِرَاسَتِه. وَلَكنَّها عادَتْ فَأنقذَتْ المَوْقِفَ قائلةً لِلفَرْخ :

- نحنُ لَسْنَا من هذه المدينة. وآختو لم يأتِ بنتائج دراستِه معه.

فقال الفــرْخُ :

- على هذا الاساس قد تقبلُكما بشكلٍ اسْتِثْنَائي. أمَّا مَعَنَا نحنُ فهي عنيدةٌ وشديدةٌ. ولا ينفَعُ معها اسْتِعْطافٌ ولا بُكَاء.

وَبَعْدَ مُدَّةٍ من السَّيْرِ بينَ الدرُوب، والأَزِقَّة، والأسواق العامرة بالأسمَاك، توقَّفَ الفرخُ امامَ قُنفذٍ بحري طَويلِ الشوْك. وَهَمَسَ في أُذُنه فترحك، فاذا هو يقف على باب جحر عميق.

وسمع آختو وأمُّه الفرخَ يقولُ للقُنفُذ :

- هذه الأُخْطُبوطُ وابنُها جاءا من بلدٍ بعيدٍ لزيارةِ خُنَاثة.

فقال القُنفذُ مُرَحِّباً بهما :

- تفضَّلا.. ولكن لا تتكلَّما معها حتى تنتهيَ من الحِكاية. فقد بدأَتْ تحكِي، وهي لا تُحِبُّ مَنْ يُقَاطِعُها. فادْخُلوا بِهُدوء.

ودخل الثلاثةُ صامِتين،وبحثوا بين الاسماك الصغيرة المتزاحمة عن مكانٍ جلسوا فيه يُنْصِتُون.

كان الجُحْرُ واسعا من الداخِل، عالِيَ السقفِ، مُضَاءً بِسِرْبٍ من سَمَكِ الشُّطُونِ الفُسْفُوري السابح قُرْبَ السقفِ، والمَرِينَة (خُنَاثة) مُلْتَوِية على ساريةٍ مِنَ الرُّخام، وقد انتشَرَ سَالِفُها الشهيرُ حولَها، وهي تحكِي، والأسماكُ الصغيرةُ تنظرُ إليها مَفْتونَةً فاتحةً أفواهَهَا باديةَ الخَيَاشِيم.

- 10 -

كانت تقول :

«... وكنتُ في ذلكَ العهدِ صغيرةً وطائشةً حمقاءَ، وكانتْ أُمي، رحمَها الله، تُحذِّرني مِنَ الاقِترَابِ من المَراكبِ. وتقول لي: إنها تحمِلُ أَخْطَرَ حَيَوانٍ في البَرِّ والبَحْرِ.. الانسان».

«ورغمَ تحذيرِها كان فُضولي ورغبتي في معرفةِ هذا الحيوانِ المخيفِ لا يُقاوَمان، وجاءتْ فُرصَتي في ليلةٍ مُقمِرَة، وكنتُ أَلْعَبُ مع زميلاتي خارجَ جُحْرِنا، فإذا بالدنيا تُظلِمُ فَجْأةً من حولِنا، وهربَ زَميلاتي، وبقيتُ لعلني اكتشفُ سببَ الاظلامِ المفاجيء، ورفعتُ عَينيَّ فاذا بطنُ سفينةٍ ترسُو فوقَنا فيحْجُبُ ظِلُّها ضوءَ القَمَرِ عنّا. كانتْ شبيهةً ببطنِ عَنْبَرٍ ضخمٍ. وبعد لحظةٍ من وقوفِها سمعتُ هَديراً يُصِمُّ الآذان. واذا بِمِخْطَافٍ حديدي ضخْمٍ ينزِلُ نحْوي مَربُوطاً بسلسلةٍ غليظةٍ، وكادَ يسحقُني لوْ لمْ أُسارِعْ بالابتعاد.

«واختبأتُ في مدخلِ جُحْرِنا وقلبي يَدقُّ منَ الفَزَعِ، وانا انتظرُ أن ينزِلَ إلينا بَنُو الانسانِ لافْتِرَاسِنا..وبَدلاً من ذلكَ، وقعَ شيءٌ لم أكنْ أتوقَّعهُ. نزلَ من السفينةِ ما يُشبهُ المَطَرَ من قِطَعِ الطعامِ الشهيَّةِ جدّاً، والتي لم نكن نعرفُها في منطقتِنا. وخَرَجَتِ الأسماكُ لتَذَوُّقِها والاستمتاعِ بها. وشَجَّعَني ذلك، فَصَعِدْتُ انا الأُخْرَى إلى قُرْبِ السطحِ لألْتَقِطَ القِطَعَ الكبيرةَ اللذيذة.

«وفعلاً لمحتُ قطعةً صافيةً في حجْمِ فمي، فأسرعتُ إلى ابتلاعِها قبلَ ان تَسْبِقَني اليها سمكةٌ اكبرُ منّي.. وكنتُ أقولُ في نفسي : ما أسْخَفَ

نَصَائحَ أمّي ! فإذا كانَ هذا هو الانسانُ، فَهوَ في الحقيقةِ، مخلوقٌ طيّبٌ كريم.

«ولكنْ لمْ أكدْ ابتلعُ القطعةَ الشهيةَ، حتى ادركتُ خَطأ تَسَرّعي وَطَعني في نُصْحِ أمي، فقد كانت قطعةُ الطعامِ مجرّدَ طُعْمٍ ترقدُ بداخلِه صَنّارةٌ حادّةٌ دَخَلَتْ في فَكّي وَعَلِقَتْ بِه. وحاولتُ الإنفلاتَ بكلِ قوّتي فلمْ أفلحْ.. كانتْ قوّةٌ اكبرُ منّي تسحَبُني إلى فوْق. وفي لحظةٍ وجدتُ نفسي على ظهرِ السفينةِ بين يَدَيْ حيَوانٍ آدمي قاسٍ عَنيف. وامسكَ بعُنقي، وَفَكَّ الشِصَّ مِنْ فَكّي، وَرَمَاني في سَلّةٍ بجَانِبه، وعادَ إلى مَلْءِ الصنارةِ الغادِرَةِ بالطعمِ وإلقائِها في الماء، ليبتلِعَها مُغَفّلٌ أو مُغفَّلةٌ مِثلي.

«وكان يجلسُ الى جانبِ الآدَميِّ الذي صَادَني، آدميٌّ آخرُ يَشْرَبُ سائِلاً كريهَ الرائِحَةِ مِنْ قِرْبَةٍ جِلْدٍ وَيبادِلُه الحَديث.

«وفَهِمْتُ مِنْ كَلامِهِمَا انَّ المركَبَ جاءَ من الطَّرَفِ الآخَرِ للغَوْرِ السحيقِ الذي أُطْلِقَ عليه البشرُ إِسْمَ أمريكا. وكانَ مُحَمَّلاً بكنُوزِ دُوَلِ (المَايَا) و(الأَزْتيك) و(الإنْكَا) القَديمة. وكان المركبُ تابعاً لقائدٍ إسباني كبيرٍ يُسَمَّى (كوُرْطيس).. وَمِمَّا حكاه عنهُ البحّارَان، فَهِمتُ انه كانَ رَجُلاً شَرِساً، قاسيا، غَادِرا، ماكراً.. فقد استطاعَ ان يقبِضَ على ابنِ أَحَدِ مُلُوكِ الهنودِ، ويطلُبَ من أبيهِ ان يَفْتَدِيَهُ بغُرْفَةٍ مَليئَةٍ بالذَّهَب. وَبَعْدَ انْ مَلأَ له الملكُ الهِنْديُّ الغرفةَ بالذهب، رَفَضَ (كورطيس) ان يُسَلِّمَه ابنَهُ.. ولمْ يَكْتَفِ بذلك، بَلْ صَلَبَهُ وأحْرَقَهُ حيّاً في سَاحَةٍ عامّةٍ».

وَسَرَتْ شَهْقَةُ فَزَعٍ واستِنْكَارٍ في جميعِ الاسماكِ الصغارِ الذينَ كانوا يُنصِتُونَ بشوقٍ الى قصةِ خُناثَةٍ، وَتَرَدَّدَتْ هَمَسَاتُهم :

- يا لَهُ مِنْ حيَوانٍ مُتوَحّش !

- يا لَهُ مِنْ هَمَجيّ !

فَرَفَعَتْ خُنَاثة ذَيْلَها لإِسْكَاتِهِمْ واسْتأنفتْ حِكَايَتَها :

«نعم.. ما أقْسَى الانسانَ على أخيهِ الإنسان. وزادتْ تلكَ الحكايةُ

في تأكيدِ ما قَالَتهُ لي أمِّي عن بَني آدَم.. ونَدَمْتُ ندماً شديدا على عَدَمِ سَمَاع نُصْحِها، والابْتعادِ عَن البَشَر الغدَّار.

«ولكنَّ كان يبدُو أنَّ الآدَمِيَّ الذي كان يشربُ السائلَ القَذرَ، كان يُعاني من أزْمَةِ ضَمِيرٍ لِمَا فَعَلَهُ رئيسهُ (كورطيس) بابْنِ الملكِ الهِنْديِّ.. فقد كان يُرَدِّدُ: (اذا لَمْ يُنْزِلْ علينا اللـهُ صـاعقةً أو يُعذِّبْنَا بمـا فَعَلَـهُ - كورطيس بذلكَ الشابِّ المسكين، فلا أدري ماذا سيكون مصيرنا في الآخرة؟

«ومنْ كلام هذا البَحَّار، ادركتُ انَّ البشرَ لَيسُوا كلُّهم أشراراً. وداعَبَني الأملُ في ان يُطْلِقوا سَرَاحِي، ويُعيدُوني إلى المَاء. فقد كنتُ أشْعُرُ بالاخْتناقِ في الهَوَاء.. وبدأتُ ادعو اللهَ في سِرِّي ان ينْجِيَني مِنْ هذه المِحْنَةِ، وأَعِدُهُ بأنَّني لنْ أعْصِيَ أمْرَ والدَتي أبداً ابداً..

«وَلمْ يبدُ انَّ السماءَ سمِعتْ دُعائي، فقد انضمَّ اليَّ بالسَّلَّةِ عَدَدُ آخرُ من الاسماكِ التي كانتْ تموتُ بسرعةٍ لافْتقَارها الى المَاءِ وحمِدْتُ اللهَ على انني مرينةٌ، وأنَّني قادرةُ على المقاوَمَةِ مُدَّةً أطْوَلَ.

«وكان يبدو أَن المَرْكَبَ غَيْرُ قَادرٍ على الحَرَكَةِ بسببِ هُدوءِ الهَوَاء.. فقد كانَتْ قُلوعُهُ خاويةً مُدلاَّةً من صَوَاريها.

«وانْتَهَى البشريُّ الذي كان يشربُ من شُرْبه، فقال لَهُ الصَّيادُ أن يأتيابمجمر يشوينا عليه نحن الاسماك ليأكلانا.

«وهنا صُعقْتُ أنا وبدأتُ أتمنَّى وأدعو الله ان يَقْبِضَ رُوحي قَبْلَ أَن يُحْرِقُوني حَيَّةً، كما فعلوا بالأمير الهِنْديِّ.

«وجاء الرجلُ بالمِجْمَر وهو يتمايَلُ حتّى يكادُ يَقعُ، والصَّيادُ يضحكُ عليه. ويبدو أنه كانَ تحتَ مَفعولِ مشروبه الحَادِّ. ووضعَ المِجْمَرَ، وَمَدَّ يَدَهُ الى السَّلَّةِ فأمسكَ بي بأَصَابعَ غليظةٍ مُشَقَّقةٍ، ولكنّي استطعتُ الانْزلاقَ من خِلالها والانْفلاتَ الى قَعْرِ السلَّةِ مِمَّا اضْطَرَّهُ إلى اخْتيارِ سَمَكَةٍ من الاسماكِ البيضاءِ الميِّتة.

«وبَعْدَ ان أكَلا كلَّ ما كانَ بالسَّلَّةِ من سمكٍ أبيض، خِفْتُ على نفسي.. والْتَصَقْتُ بِحافَّةِ السلةِ حتى لايَرَيَاني، ولكنْ كان يبدو انهما شَبعا،

وارْتَوَيا مِمَّا شَرَباهُ من زِقٍّ بجانِبِهِم، وَقَعَدا يُغَنِّيَان، وَيَتَجَشَّآنِ في نَشْوَةٍ وَمَرَح.

«ومال الأَولُ على الصَّيادِ وَهَمَسَ له :

- هل تستطيعُ ان تَكْتُمَ سِرّا ؟

- طبعـا.

- سِرّاً خطيرا، وخطيرا جدا !

وتحرَّكَ فضولُ الصيادِ فاقتربَ منهُ قائِلا :

- أنت تعرفني جيدا.. بِئْرٌ بلا قَعْرٍ !

- اذا انت كشفتَه لأحدٍ كانتْ فيه نهايةُ حياتِكَ وحياتي.

- يا إِلَهي ! لابدَّ أنه سِرٌّ خطير جدا، وكبيرٌ جدا بِحَيثُ لا تستطيعُ حَمْلَه وحدَك.

فتنهَّدَ البحَّار الاولُ، وقـال :

- صدقتَ، لقد ضِقْتُ بِهِ ذَرْعاً طُولَ هذه المدَّةِ. وأريدُ أحدا يُشارِكُني في حمْلِ عِبْئِهِ الثقيل .

- سَتَجِدُني حَجَرًا أَصَمَّ.

ونظرَ الاولُ حوالَيْهِ، ثم اقْتَرَبَ من أُذُنِ الصيادِ وهمس :

- رُبَّانُ سفينتِنا (فالديز) يريدُ بِمَلِكَتِنَا (اصابيلا) شَرّاً.

- مـاذا ؟

- انه يريدُ الاِسْتيلاَءَ على عَرْشِ اسبانيا.

- وكيفَ عَرَفْـتَ ؟

- سَمِعتُهُ يردِّدُ ذلك، ونحنُ في إِحدَى الغاباتِ دونَ أن يراني.

- ربَّما كان يردِّدُ حُلماً من احلامِ يَقْظَته بصوتٍ عالٍ. وكلنا نحلُمُ بالعَظائِم، ولكنَّ تحقيقَ تلكَ الاحلام، قد يكونُ مُسْتَحيلا.

فزادَ البحَّارُ اقترابًا من زميلِهِ وقال :

- ليسَ على (فالديز). فهو يملكُ وسيلةً لتحقيقِ أحلامِه.

- وما هي هذه الوسيلة ؟

ـ هذا هو قلبُ السِّرِّ الذي يعتقِدُ (فالديز) انه يعرفُه وحدَه. فقد عَثَرَ في أَحَدِ مَخابيءِ هنودِ (الإِينْكَا) على عصا سحرية قال له كاهنُ المعبَدِ إنها تُسَمَّى صولجانَ الحِكْمَةِ، تُحقِّقُ عَشْرَ أمانٍ. وكنتُ انا استمعُ من خلفِ شجرةٍ الى الحديثِ الذي كانَ يَتِمُّ عن طريقٍ ترجمانٍ هندي.

ـ وهل صَدَّقْتَ ذلك ؟ انتَ تعرفُ ان الهنودَ مُشَعْوِذُونَ وَخُرَافِيُون.

ـ لا لَمْ أُصَدِّقْهُ حتى رأيتُ الدليلَ بِعينيَّ هاتَيْن.

ـ كيــف ؟

ـ تَبعتُ (فالديز) والترجمانَ وسَط الأَدْغَالِ الكثيفةِ. ولابُدَّ أَنّ (فالديز) شَعَرَ بانَّ التَّرْجُمانَ الهندي يريدُ الاستيلاءَ على العصا السحريةِ، فتركَهُ يبتعدُ عنه قليلا وَوَجَّهَها نحوَه، وقال لها : (احْرِقي التَّرْجُمان) وفي نفسِ اللحظةِ، اشتعلتْ النارُ في جسدِ الترجمانِ الهندي حتى صارَ شعلةً آدميةً تصرَخُ، وتجري وتَحْتَكُّ بالاشجارِ والارضِ لإِطْفاءِ اللهَبِ، دونَ جَدْوى.

وفتحَ الصيادُ فمَهُ متعجِّبا :

ـ يا إلهي ! ماذا فعلَ بَعْدَ ذلك ؟

ـ سَمِعَتْ قريةٌ هنديةٌ صراخَ الترجمانِ فَخَرَجوا ينظرون.. وحين رأوا جثّةَ ابنِ جنسِهم محروقَةً تَبِعوا آثارَ (فالديز) بين الأَدْغَالِ.. كان يريدُ الفِرارَ منهم حتى لا يضطرَّ لتبذيرِ أمانيه العَشْرِ.. ويبدو انهم لحِقوا به فاضطُرَّ الى التخلُّصِ منهم عن طريقِ العصا السحريةِ. وحينَ تخلَّصَ منهم وجَدَ نفسَه هائماً على وجهِهِ داخلَ الادغالِ، فاضْطُرَّ الى استعمالِ العصا مرةً ثالثةً ليعودَ الى الشاطيءِ. وهكذا ضيَّعَ بعضَ أمانيه الغاليةِ بِحَماقةٍ كبيرةٍ.. ولكنْ ما تزال بالعصا ثلاثُ أو اربعُ امانٍ، يمكنُ ان ينِّفذَ بها خِطَّتَه الجهنميةَ في اسبانيا.

«ولم يكدْ يتمُّ كلامَه حتى خرجَ لهمَا رجُلان، احدُهما ابيضٌ يلبسُ ملابسَ فَخْمَةً كثيرةَ الالوانِ والريشِ، لابُدَّ أنه كان (فالديز) ربّانَ المركبِ، والثاني عملاقٌ اسودُ أبكَمَ.



«وأمسكَ كلٌّ منهما بأحدِ البحّارة فطعَنه بِخنْجَره، وَرَمَيا بهما الى البحرِ فنزلا الى القعْر بسرعة، واجتمعتْ عليهما القروشُ الكاسِرَة فافْترَستْهمَا، ومزّقتهما إرْباً إرْباً.

«وكنتُ انا اتفرجُ على ما يَحْدثُ وأرتَعِدُ من الذُّعْرِ.. وخُصوصًا حين التَقَطَ الرجلُ الاسودُ القَصْبَةَ التي كان يصيدُ بِها البحارُ، وكسرَها ورماها في الماءِ.. ورأيتُه ينظرُ الى السلةِ بعينين حَمْرَاويْن، فقلتُ لابدَّ انه سيفعلُ بي ما فعلَه بالبحارَيْنِ، ولكنه طرحَ بالسلةِ الى البحرِ دونَ ان ينظرَ الى ما بداخِلِها.

«وَبَقيَتْ السلةُ تسبحُ بي فوقَ الماءِ.. وانا اتنفسُ لأوّلِ مرةٍ داخلَ الماءِ البارِدِ الذي كان يَغْمُرُني، واستردُّ قُوايَ المَنْهُوكَة.

«وهبَّ نسيمٌ خفيفٌ جَعَّدَ وجهَ الماء، ولم يَلْبَثْ ان تحوّلَ الى هواءٍ غَرْبِيٍّ ملأَ قلوعَ السفينةِ، وبَعثَ الحَرَكَةَ والحياةَ على ظهرِها. فبدأتْ تتحركُ رافعةً مرْسَاها.

«ولكنَّ الهواءَ لم يلبثْ ان تحوّلَ الى ريحٍ عاتيةٍ، فعاصفةٍ مزّقتْ قلوعَ السفينةِ وحوّلتْهَا الى سُيُورٍ متهدّلةٍ.. وارتفعتْ الامواجُ فَغَرقَتْ بي السلةُ الى القعرِ.

«وتحولتْ العاصفةُ الى إعْصَارٍ هَيَّجَ البحرَ ومَخَضَهُ مخْضاً شديدا، ولَعِبَ بالسفينةِ الثقيلةِ حتى صارَتْ كريشةٍ تُغَطّيها الامواجُ من كل جانب.

«ولم تلبثْ ان انشَطَرَتْ شطرينِ وابْتَلَعَهَا المحِيط».

ـ 11 ـ

وَسَكَتَتْ المرينةُ العجوزُ، والتفَتْ بالساريةِ الرّخَاميةِ وهي تَلْهَثُ من شِدَّةِ المجهودِ الذي بذلتْه في الحِكاية..

وتنفّسَ جميعُ الاسماكِ الصغارِ الصُّعَدَاءَ. وحمدُوا اللهَ على انها مُجَرّدُ حكايةٍ. فقد كان بعضهم يعتقدُ انَّه سيجدُ الإعْصَارَ بالخارِجِ حين يخرجُ، ولن يستطيعَ الذهابَ الى جُحْرِ أهْلِه.

وحين استراحَتْ خُنَاثَةُ قليلا، رَفَعَتْ رأسَها فهدأَتْ اصواتُ الصغارِ، فقالت وهي تَخْتِمُ القصةَ :

«وحين هَدَأَ الاعصارُ، بَقِيَتْ بعضُ ألْواحِ السفينةِ وقلوعها وصواريها طافيةً على وجهِ الماءِ. اما الكنوزُ التي سَرَقَها الاسبانُ من الهنودِ الحُمْرِ، فقد انْحَدَرَتْ الى الغَوْرِ السحيقِ، وهي ما تزالُ هناكَ منذُ ذلكَ العهدِ حتَى الآنَ».

وهنا هَمَسَ آختو لأمِّه شعلة :

ـ ذلك هو الكنزُ الذي قالتْ لنا عنْهُ (مُذْهبة). إسّأليها أينَ يوجَدُ بالضبط.

فأسْكَتَتْهُ أمُّهُ قائلة :

ـ ليسَ الآنَ. حتى يخرجَ الأطفال.

وهنا تَثَاءَبَتْ خُناثةُ العجوزُ، واشارتْ بِذَيْلِها الى الصغارِ :

ـ تصبحونَ عَلى خَيْر.

ـ فَرَدّوا كلّهم بصوتٍ واحد :

ـ تصبحِينَ على خير، يا جَدَّتَنَا خُناثة. وشكراً لك على الحكاية.
فارتسمت على وجهِ المرينةِ العجوز ابتسامةُ ارتياحٍ ورِضا. واخذَ صغارُ الاسماكِ يخرجونَ ليلتقوا بأهلِهِم خارجَ الجُحْر.
وحين خرج الجميعُ، اقتربتْ شعلة وابنها من منصةِ خناثة، والقنفذُ الحارسُ خَلْفَها. واحسَّتْ خناثةُ باقترابهما فرفعتْ رأسَها بِقوّةٍ، وسألتْ بصوتٍ حادٍّ :
ـ من هنــاك ؟
فتكلّم القنفـذُ :
ـ أنا يا سيدتي.. عندنا الليلةَ ضيوفٌ جاؤوا لزيارَتكِ من بلادِ الشواطيء.
ـ ضيوفٌ من بلادِ الشواطيء ؟ أهلا بِهِم وسهلا.
وتقدمت شعلةُ فسلّمتْ عليها وقالت :
ـ انا الاخْطبُوطُ شُعلة، وهذا ابني آختو.
وَدَفَعْتهُ نحوَها فسلَّمَ عليها هو ايضا، فقالت :
ـ اهلا بِكُمَا في بلادِ (جُرْفِ الغَوْرِ) ماذا جاء بِكمَا من بَلدِكما البعيدِ الى هنا ؟
فقالتْ شعلة :
ـ أرْسَلَتْنَا اليكِ (مذْهَبَةُ) لِتدلّينَا على سفينةِ الكنوزِ الإسبانية.
ـ وماذَا تريدانِ بالسفينة ؟
ـ نريدُ تقديمَ هديةٍ مناسبةٍ لصديقةٍ آدمية..
فظهرَ الانفعالُ فجأةً على وجهِ خناثةٍ العمياءِ، وقالت :

ـ هديةٌ لآدمية؟ هل جُننْتِ؟ ألمْ تسمعي ما حكيتُه اللحظةَ عن تَصَرُّفَاتِ بَني آدَم؟.. وانتم سُكَّانَ الشواطيءِ أدْرَى بهذا الجِنْسِ الخبيث.. فقد لَوَّثَ الشواطيءَ بالزِّفْتِ والقِطْرَانِ والكِيمَاوِيَاتِ المَسْمُومَة التي قَضَتْ على ملايين بيضِنَا وأنواعِنَا. وكيف تعتقِدين انّي فَقَدْتُ بَصَري؟ لقد



تَعَرَّضْتُ لإنْفِجَارِ قُنبلَة أعْمَاقٍ وأنا أتَفَرَّجُ على غَوَّاصَةٍ اثناءَ إِحدى حُرُوبِ البَشَرِ المُخِيفةِ. فَكيفَ تريدينَ تقديمَ هديةٍ لِهذا الجنسِ الفَتَّاك؟

فقالت شعلــة :

- صَدِّقيني يا جَدَّتي، إنَّ هِذِهِ الآدمية تختلفُ عن بني جنسِها. فقد انقذتْ ولدي آختو من موتٍ مُحقّقٍ على يد صَيَّادٍ مُجْرِم كادَ يَطْعَنُهُ بِسَهْمٍ حديدي.. وقد عَرَّضَتْ كفَّها للسهم دِفاعاً عن حَياتِه. ولا اريدُ ان يعتقدَ بنو آدمَ اننا نحنُ الاسماكَ لا نَعْتَرِفُ بالجميل.

فحرَّكَتْ المرينةُ العجوزُ رأسَها غيرَ مُقتنعةٍ، وقالت :

- عَاعْ !.. لابد أنها كانت تريدُ ابنَك لنفسها، ولم تكن تحميه لله.

- ابداً يا جَّدتي.. فقد حَمَلْتهُ من البِرْكَةِ التي كان فيها، ونقلتْهُ الى البحرِ الكبيرِ حتى لا يتعرضَ للخطرِ مرةً أُخرى..

- عَاعْ ! لا أصَدِّقُ ذلك..

- صدقيني يا جدتي.. فقد بدأَ بعضُ البشرِ يتغيرون.. ألَمْ تسمَعي بجمعياتِ الرِّفْقِ بالحيوان ؟

- لم أسمَعْ بجمعيةِ الرِفْق بالأسْمَاك.

وَيئِسَتْ شُعْلة، فسكتت.

وارتَفَعَ صوتُ آختو باكياً خَائِبَ الأَملِ من موقفِ خُناثةٍ، فقالت هذه :

- لن ينفعَك البكاء يا ولدي.. فقد اقسمتُ امامَ جميعِ سَمَكِ المُحيطِ ألاَّ أفعلَ إلاَّ ما يَضُرُّ بالانسانِ. ولا استطيعُ التَراجُعَ عن قَسَمي.

ونادت القنفذَ وقالت له :

- أكْرِمْ ضَيْفَينَا، وخُذْهُمَا الى غرفةِ الضيوفِ لِيَنَامَا.

وناما تلك الليلةَ يَحْلُمَان احلاماً مُزْعِجَة.

ـ 12 ـ

وفي الصباح تركَ آختو أمَّهُ تُفْطِرُ مع خَناثَةٍ المرينةِ العجوزِ، وخرجَ يلعبُ ببابِ المَغَّارَةِ ويستكشفُ مدينةَ (حافة الغور).

وسأل آختو القنفذَ الحارسَ :

ـ لماذا سُمِّيَتْ المدينةُ بحافَّةِ الغور ؟

فأجابه القنفذُ :

ـ لأنَّهَا تقعُ فِعْلاً على حافَّةِ الغَوْرِ السحيق.

ـ وأينَ هُوَ الغـوْر ؟

فـأشـار القنفذ غَرْبَاً، وقال له :

ـ حَذَارِ من الانزلاقِ إليه. فهو مظلمٌ، وعامرٌ بالغِيلاَنِ والعَفَارِيت.

وخافَ آختو، ولكنَّ فضولَه كان أقوى من خوفِه. فتقدمَ بحذرٍ. ولم يكدْ يصلُ الى نهايةِ الزّقاقِ حتى رَأى حافَّةَ الغورِ العميق. فوقفَ على حافَّتِهَا وأطلَّ بعينينِ امتزجَ فيهما الحَذَرُ والخوفُ، والانْبِهَار.

وقال لنفسه بصوتٍ مرتفع :

ـ اذا كان الكنزُ مدفونا هنا فلا فائدةَ من البحثِ عنه.

واحسَّ بخيبةِ الاملِ، ومرارةِ الفشلِ بعد الرحلةِ الطويلةِ، فقعدَ على الحافَّةِ يبكي.

وبينما هو كذلك، اذ سمِعَ قهقهةً رقيقةً كزقزقةِ العصافير. ورفع رأسَه، فاذا (دنفيل) يقفُ أمامَه على سطحِ الغورِ يُحَاوِلُ تسليَتَه بحركاتٍ بهلوانيةٍ. ولَمَّا لمْ يضحكْ آختو اقترَبَ منه بِفَمِهِ الكَلْبِي البَارِزِ، وَسَأله :

- ماذا يُحْزِنك أيها الأخطبوط الصغير ؟

وفتح آختو فمَه ليحكيَ له، ولكنه خافَ ان يكونَ جوابُه نفسَ جوابِ المرينةِ خناثة، وربَّما أعْنفَ، فقرَّرَ ان يكذِبَ على الدنفيلِ البهلوانِ، وقال :

- جئتُ أنا وأمّي لزيارةِ احدِ اقاربِنا بمكانٍ يقال له (كنز كورطيس)، ولكننا لم نجد احدًا يدلّنا عليه.

وفُوجِئ آختو بصوتِ أمِّه من ورائِه :

- لا يا آختو، لا تكذِبْ على السيدِ دنفيل.. فهدفُنا خير. وكذلك يَجبُ ان تكونَ وسائِلُنا. والكذبُ شَرّ.

فاحتجَّ آختو :

- ولكنها كِذْبةٌ بيضاءُ، لا شَرَّ فيها..

- ومع ذلك فهي كذبة.

فغضبَ آختو وقال :

- وماذا حَصَلْنا من وراءِ الصِّدْقِ حتى الآن ؟

فَزعِقَ الدنفيلُ في وجهِه :

- عيبٌ يا آختو ! لا ترفعْ صوتَكَ على أمِّك !

وتوجَّه الى (شعلة) وقال :

- اسمَحِي لي أن أقدِّمَ نفسيَ يا سيدتي، اسمي (ضاحِك)، وانا مِن سُكّانِ الغورِ وتحتَ أمرِك.

فمدَّتْ (شعلة) إحدى أيديها مُصافِحَةً له، وقالت :

- شكرا لك، وانا (شعلة)، وهذا ابني آختو. في الحقيقةِ نحن نبحث عن شيء يُعْجِبُ الانسانَ، لتقديمِه هديةً الى فتاةٍ آدمية، انقذت حياةَ ابني هذا. وكلُّ الذين سألناهم من جنسِ السمكِ وجدناهم يكرهُون الانسانَ، ويرفضونَ المساعدة.

فضحك الدنفيل، وقال :

- شيءٌ غريب ! ولكنَّ مشكلتكما انتهتْ.. انتهت تماماً وفي هذه اللحظة! فقد التقيتما بحوتٍ يُحِبُّ الانسانَ ويُقدِّرُ مَزاياه.

وانْحَنَى امامَهُمَا بحركةٍ مَسْرَحِية :

ـ انه يقفُ امامَكُمَا.

وقفز آختو فَرِحاً حتى سقَطَ في الغَوْرِ، فدخل (ضاحك) الدنفيل تحتَه وأخرَجَه، وَغَمَزَ لشُعلةٍ ان تركَبَ هي الأُخرى على ظهرِه، وَتَلْتَصِقَ به جيدا.

وصعدت شعلةُ، ووضعت آختو امامها، وأَلْصَقَتْ مصَّاصاتِ ايديها الثمانيةِ بظهرِ الدنفيلِ، وهمستْ لآختو أن يفعلَ المِثْل.

وغاص بهما ضاحكٌ الى اعماقِ الغورِ وهو يحكي لهما عن مغامراتِه مع بني الانسان. وكيف ان المراكبَ تُلقِّي إليهِ بالاكل الشَّهِيِّ، وكيف انه انقذَ عددا من البحارةِ والمُسافرِين سقطوا من مراكِبِهم، أو غَرَقَتْ بهم سُفُنُهم اثناءَ العواصف.



- 13 -

وبعدَ رحلةٍ طويلةٍ دامتْ طَوالَ النهارِ وطَرفاً منَ الليل، توقّفَ (ضاحك). أوقفَتْهُ شُعلةُ، وأخبرَتْهُ بأنَّ طِفْلَها آختو جاعَ وتَعِبَ، فقهْقَهَ ضاحكٌ وقال :

- يا لي من مُغَفّل ! كيفَ نسيتُ ذلك ؟ ولكننا اقتربنا من الكنزِ على أيِّ حال.

وأرْخَى عَضَلاته القَوِيَّةَ، وهَوَى الى القَعْرِ كطائرٍ ينزلُ على الارضِ. وحين لَمِسَتْ بَطْنُهُ القَعْرَ قال :

- انزِلاَ أنتما هنا، وسأذهبُ لأبْحَثَ لكُمَا عن شيءٍ تأكلانِه.

فقالت شعلةُ وهي تُنْزِلُ آختو :

- لا تُتْعِبْ نفسَك. سنبحَثُ نحنُ عن طعامِنا.

وفي تلكَ اللحظةِ، وَقَعَ شيءٌ غريبٌ. كان بساطٌ من الضوءِ الأصفرِ يقتربُ منهم. وفجأةً تحوَّلَ ظلامُ الليلِ الحالكِ الى ضوءٍ يشبهُ النهارَ. فخافَ آختو والْتَصَقَ بأمِّه. ولكنَّ ضاحكَ كتَمَ قهقهتَه المعهودةَ بصعوبَةٍ كبيرةٍ وَتَحفَّزَ لِلانقِضَاضِ.

نَظَرَ الثلاثة إلى فَوْقَ. فإذا البساطُ النُّورَانِيُّ يَمُرُّ من فوقهم على مَهَلٍ. وفجأةً انطلَقَ ضاحِكُ كالسهمِ المارِقِ، فَخَرَقَ البِسَاطَ بجسدِه القوي.

والتفتَ آختو الى أمِه سائِلا :

- ماذا يفعلُ ضاحك ؟

قالت شعلةُ مُهَدِّئَةً رَوعَه :

ـ انه يصطادُ لنا بعضَ سمكِ السردِين (والشُطُون).

ـ في ذلك الضـوء ؟

ـ ذلك الضوءُ يَصْدُرُ عن الفسْفورِ المُرَكَّزِ في عِظامِ وأَمْخَاخِ السردين والشطون. ولذلكَ أحُضُكَ على أكلِهِ حتى تقوى عِظَامُك وعينَاك، وذكاؤك.

وبدأتْ تتساقطُ عليهما عشراتُ السردِيناتِ والشطوناتِ التي مَضَغَهَا ضاحكُ وأرسلها إليهما. وأخذا يأكلانِ في نَهَمٍ والْتِذَاذ.

ونزل ضاحكُ فانضمَّ اليهما، وهما يشكُرانِهِ على حُسْنِ ضِيافته.

وناموا تلك الليلةَ في مَغَّارَةٍ قريبة. وفي الصباحِ الباكرِ، تركَ آختو أمَّه نائمةً في المغارة وخرج يستكشفُ المنطقة.

وبحث عن ضاحكٍ فلمْ يجدْه، ولكنه رأى ظلَّهُ على القعْرِ. فَرَفَعَ عينيهِ فاذا بضاحِكٍ طافٍ على وجْهِ الماءِ بِلاَ حَراك.

وَدَقَّ قلبُه بعنفٍ، ودخل يجري إلى أمّه فأيقظَها لاهثاً وقال :

ـ أمي.. أمي.. أفيقي.. تعالي انظري إلى ضاحك.. انه مات !

ـفخرجت شعلة منزعجةً، ونظرتْ الى حيثُ كان ضاحكُ طافياً، ومسحتْ عينيها وَتَثَاءَبَتْ بلا مُبالاةٍ أَحْنَقَتْ آختو، وقالت :

ـ أفزعتني يا آختو.. إن ضاحكَ نائمٌ. وهو ينامُ قرْبَ السطحِ لأنه يتنفَّسُ الهواءَ.

فاستغرب آختو لذلك وقال :

ـ مثلَ الانسان؟

ـ تماماً.. ولكنه لا يستطيعُ الحياةَ خارجَ الماءِ. فالشمسُ تحرِقُ جلدَه.

ـ مثل الانسان!

ـ تماماً.. ولكن ليسَ له يَدانِ ولا رِجلان.. وهو يَلِدُ ويُرْضِعُ كالانسان. ولا يخرُجُ من البيض كبقيةِ الأَسْمَاك.

ـ سبحانَ الله.! لذلك يُحبُّ الانسانَ. لأنه ابنُ عمِّهِ.

ـ تماما..

وترك آختو أُمَّهُ، وذهبَ يتجَّوُلُ في الغابَةِ المجاوِرَة. وهناك عَثَرَ على سِرْبٍ من الأسماكِ الصغيرةِ، فاجتمعوا عليه يسألونَه عن بلدِه وَوِجْهَتِهِ، في فضولٍ صِبياني.

وحين استأنسُوا به بدأ هو الآخر يسألُهم عن بلدِهم، وعن مكانِ سفينةِ الكنزِ، فَحَكَوْا له كلَّ ما سمعُوه من كبارِهم.

ولم يفترقْ معهم حتى سمعَ أمَّه تناديه، فَوَدَّعَهُمْ، وعادَ اليها.

وضحكَ (ضاحكٌ) حين رآهُ وسأله :

ـ ألم تكن تعرفُ انني اتنفسُ الهواءَ ؟

وحين افطروا بما بَقِيَ من أسماكِ الأمسِ، ركبتْ شعلةُ وآختو مَتْنَ ضاحكٍ... وانطلقوا يَمْخُرُون عُبابَ المُحيطِ.

وفي منتصفِ النهارِ، توقَّفَ ضاحكٌ وقال :

ـ لقد وصلنا الى سَفينة الكنز.

وَدقَّ قلبُ آختو، وأَخَذَ يقفزُ فَرَحاً فَوْقَ ظهْرِ ضَاحِكٍ، فقد سمعَ كثيراً عن الكنوزِ؛ ولكنه لمْ يَرَ احدَها في حَيَاتِهِ.

وتنحنحَ ضاحِك، وقال :

ـ هناكَ مُشكِلَةٌ صُغيرة.

فَهَبَطَ قلْبُ شُعلــة :

ـ ما هــي ؟

ـ حارسُ الكنز.

ـ وهل على الكنزِ حارس ؟

ـ انه أخطبوطٌ ضخمٌ عجوزٌ سكَنَ سفينَةَ الكنزِ منذُ غَرِقَتْ. وهو يعتقدُ أن رسالَتَهُ في الحياةِ هي حراسَتُها. ولا أَحَدَ يدرِي لماذا ؟

فسألت شعلة مشفقة :

ـ وماذا سنفعــل ؟

ـ أتركَا الأَمْرَ لي.. لقد فكرتُ طوالَ الطريقِ في خِطَّة.
واقتربَ آختو الذي كانَ يُنْصِتْ باهتمامٍ، فأضاف ضاحك :
ـ سأهاجِمُه داخَل المركب.
وحين لم تَتَحَمَّسْ شعلةُ وابنُها للفكرةِ، توقفَ عن قهقهتِهِ في الحالِ،
واقتربَ منهما بأنفِه سائلا :
ـ أَلَمْ تعجِبكما خِطّتي ؟
فتكلمت شعلةُ بأدَبٍ زائد :
ـ أَرجُو أَلاَّ تغضبَ مما سأقولُه يا سيد ضاحِك.
فقهقَهَ ضاحكٌ، وقال :
ـ لو كنتُ اغضبُ لما سَمَّوْنِي ضَاحكا.
فعلَّقت شعلــة :
ـ تعجِبُني روحُك الرياضِيةُ.. لذلك سأصارِحُكَ بأَن خطتَك هذهِ لن تنجح.
فسأل ضاحــك :
ـ ولكن لمــاذا ؟
ـ لانكَ ستقاتِلُ الاخطبوطَ الحارسَ في ميدانِه.. وصَدِّقْني، إنكَ لن تستطيعَ التغلُّبَ عليه.
ففكّر ضاحكٌ مَلِياً، وقال :
ـ وماذا سنفعل ؟
فقالت شعلــة :
ـ يجب أولاً ان نخرجَه من هناكَ وذلك يتطلبُ الحيلةَ، وليسَ القوة.
واستغرقَ الاثنانِ في التفكير.
ولم ينتبهَا إِلاَّ حين أَخَذَ آختو يصرخُ ويُعَكِّرُ الماءَ بدُخَانِه، فقالت له أمه معاتبة:
ـ ماذا تريدُ ؟ أَلاَ تَرى انَّنا نفكر ؟
ـ اريدُ ان تستمعا اليَّ.

فقالت شعلة على مضض :
- ماذا تريد ان تقول ؟ لا تُضَيِّع وقْتَنَا.. بسرعة !
- اريدُ ان اقولَ انني اعرفُ حيلةً لاستدراجِ الاخطبوطِ الحارِسِ من قلبِ سفينةِ الكنز.

وشبكت أمُهُ أذْرُعَهَا الثمانيةَ بصبرٍ نافذٍ وقالت :
- وما هي هذه الحيلة ؟
- سمعتُ من أبناءِ هذه المنطقةِ ان الاخطبوطَ الحارسَ فقد إحدى أيديهِ في معركةٍ مع خُنْكَليس، ولم تبقَ له إلاّ سَبْعُ أذْرُعٍ.. وقد أطلقَ عليه اهلُ المنطقةِ لقبَ (أبي سبعة) وهو يكرهُ هذا اللقبَ جدا، لانهُ يذكِّره بنقصه. وكلُّ من ناداه به يطارِدُهُ ويقاتِله.
ففتحَ الدنفيلُ ضاحكُ فمَه إعجاباً بفكرةِ آختو، وقال :
- جاءنا الحـــل !
ونقلت شعلة بصرها بينهما غيرَ فاهمَة، فَشَرَحَ آختو :
- اذا ناديناه (بأبي سبعةٍ) خرجَ من السفينةِ ليطارِدَنا وترَكَهَا دونَ حِراسة !
فلمعتْ عينا شُعلة، وضَمَّتْ ابنَهَا إليها قائلَةً :
- أنت ولد ذكي !
ثم تردَّدَتْ قليلا، وقالت :
- ولكن لا ينبغي ان ننادِيَهُ نحنُ. فقد يهاجِمُنا.
فتقدم ضاحك، وقال :
- اتركا الأمرَ لي.
وتقدم الثلاثةُ قليلا فظهرتْ لهم سفينةُ الكنزِ غارقةً الى نصفِها في الطين، وقد نَبَتَتْ حولَهَا غابَةٌ من الطحالِبِ واحجارِ المَرْجانِ حتى كادت تُغَطِّيهَا.
وفتح آختو فَمَه مبهورًا بمنظرِ السفينةِ القديمةِ الغارِقةِ. لم يكن يعتقد



ان ما حَكَتْه المرينةُ العجوزُ (خناثة) حَدَثا واقِعيا. وها هو الآن يقفُ امامَ مَشْهدٍ لم يكنْ يظنّه موجودًا إلا في الخيال.

وتقدمَ الدنفيلُ ضاحكٌ من باب السفينةِ المُظلم، وصاح :

ـ يا أبا سبعة ! يا ناقصَ واحدة !

واخذ يضحكُ، ويقهقهُ، ويتمرّغ فوقَ الطحالبِ مُستفزًا الاخطبوطَ العِمْلاق.

ولم تمضِ لحظةٌ حتّى خرجَتْ من فَوْهةِ السفينةِ زَوْبَعَةُ دُخَانٍ أسودٍ غَطَّتْ السفينةَ وما حولَها. وخرجَ الاخطبوطُ الضخمُ غاضبًا يبحثُ عن مناديه بذلك اللقبِ الكريهِ، وكأنهُ ماردٌ خرجَ من قُمْقُم.

وفوجيء به الدنفيلُ ضاحك وهو فوقه كمظلةٍ كبيرةٍ من العضَلاتِ الفولاذيةِ المفتولةِ وقبلَ ان يُطْبِقَ عليه بِرَمْشَةِ عينٍ انفلتَ ضاحكُ من تحتِه بسرعةِ السهمِ، وابتعدَ يقهقهُ ويصيح :

ـ خرجتُ خرجت من فتحَةِ الكِرَاعِ الثامنة !

وزادَ حَنَقُ الاخطبوطِ الحارس، فدفعَ الارضَ بكلّ قواه وجميعِ اذرعِه، وانطلقَ خلفَه. وانتظرَه الدنفيلُ حتى اقتربَ منه، فأطلَقَ في وجهِه قهقهةً أخرى، وصَفَعَ وجهَه بذَيلِه وابتعدَ..

واغتنمتْ شعلة فرصةَ خُلوِّ السفينةِ، فامسكَتْ بِيَدِ آختو ودخلَتْ مسرعةً، وهي توصِيه :

ـ لا تضيّعْ الوقتَ في اللعبِ بما قد تعثرُ عليه من لُعَب. إبْحَثْ عن صَوْلَجانِ الحِكمةِ، أو العصا السحريةِ التي حَكَتْ لنا عنها المرينةُ العجوزُ؛ فهو أنْسَبُ هديةٍ لصديقتِك (وردة).

وتسلّلاَ الى داخلِ السفينةِ من إحْدَى نوافِذِها الجانِبية. وبِداخِلها كان دخانُ الاخطبوطِ الحارِسِ ما يزالُ منتشرًا كظلامِ الليل.

ووقف الاثنانِ ينتظرانِ ان ينقشعَ.. وشيئاً فشيئا بدأَتْ أشعَةُ الضوء تخترقُ جَوَّ المكانِ فكشف عن منظر يحبس الانفاس.

كان بطنُ السفينةِ عِبارةً عن فراشٍ من الجَواهِرِ النفيسةِ تتلألأ بجميع

ألوانِ قَوسِ قُزَح.. وعلى جوانبِها كانت رفوفٌ من خشبٍ مُتآكلٍ تكشِفُ عن سبائِكَ من الذهبِ الخالص.
ووقف آختو ينظرُ مبهورًا إلى هذهِ الألوانِ الجميلةِ حتى جذبتْه أمُّه من يَدِه هامِسة :
ـ تعالَ نبحثْ.. قد يرجعُ الحارسُ في أيِّ لحظة.
واخذت هي جهةَ اليمينِ، وأخذَ هو ناحيةَ اليسار، وأخذا يَزْحَفانِ بأرجُلِهما السِّتَّ عشرةَ ويبحثانِ تحتَ اكوامِ الجواهِر، وداخلَ الرفوفِ.
وكان آختو، لِصِغَرِ حجمِه، يدخلُ جميعَ الثقوبِ كيفمَا كانت صغيرة..
وحين خرجَ من إحدى الحُفَرِ يائساً جاءت إليه أمُّه :
ـ هل وجدتَ شيئا ؟
ـ لا...
ـ يجب انُ نفكِّر قبلَ ان نبحثَ. اذا كان صولجانُ الحكمةِ ثميناً جدا، فلا يمكنْ ان يضعَه صاحبُه في أي مكانٍ يسهُلُ العثورُ عليه.
ـ حقا يا أمي. اذا كانَ مهِمّاً فلابدَ انُ يخَبِّئَه في مكانٍ أمين.
ـ علينا اذن ان نبحثَ عن غرفةِ الرُّبَّان.. فهي ذلك المكان.
وتوجها نحوَ بابٍ سميكٍ مُقَوىً بصَفائحِ الحديد، وبحثَ آختو عن ثقْبٍ يدخلُ منه فلمْ يجِدْ إلَّا ثقبَ المفتاح. ودخلَ منه الى غرفةِ الرّبان، فوجَدَ النورَ يدخُل اليها من ثقبٍ كبيرٍ بالسطحِ ..فهبَط قلبُه خوفاً من أن يكونَ أحدٌ قد سرقَ الصوْلَجان .
وجال آختو بعينيهِ فرأى صندوقًا كبيرًا مفتوحًا فتأكدَ من أن الصولجانَ كان بداخِلِه وأنه سُرِق .
وهمَّ بالعودةِ الى أمِهِ التي كانتْ قلقةً تناديه ليخرجَ من هناكَ، ولكنهُ لاحظَ دكَّةَ السريرِ الذي كان ينامُ عليهِ الربانُ . فذهبَ الى أمِّه وهمسَ لها من خَلْفِ الباب :
ـ انتظريني قليلا .

وأسرعَ نحوَ الدكّةِ فبحثَ في جَوانبِها عن ثُقْبٍ حتى وجدَه، ودخلَ اليها .

وانتظرَ قليلا حتى أَلِفَتْ عيناه الظلامَ، وأخذَ يبحث يَمْنةً ويَسْرةً فاذا بصندوقٍ مستطيلٍ عليهِ قُفْلٌ صَدِيءٌ هَشٌّ . فدخلَ بينَ القفل والصّندوق ودَفَعَ بكلِ قُواه، فانفصَلَ القفلُ عن الصندوقِ . وأدخلَ إحْدى أيْدِيهِ فبحثَ داخلَ الصندوقِ فإذا عصاً مستطيلةً ترقدُ بداخلِه . فأمسكَ بهَا بقوة، وفتحَ الغطاء ببقيةِ أذرعِهِ، وخرجَ بهَا وعَقْلُه يكادُ يطيرُ فَرَحا .

ولم يطلْ فرحُه كثيرا .

ولم يكدْ ينادي أمَّه ليخبرَها، حتى سمعَ صرخاتٍ مرعبةً من داخل السفينةِ . وأطلَّ من ثقبِ الباب، وقلبهُ يُدقُّ بعنفٍ فرأى الأخطبوطَ الحارسَ يُطَوّقُ عنقَ الدنفيلِ بإحْدَى أذرعِهِ الفُولاَذية، ويمسكُ بأمه شُعلةَ بذراعٍ أخرى ويضربُ بهِمَا الارضَ، وهي تستغيثُ .

كان الدنفيلُ يفتحُ فَمَه فتخرجُ منه فقاقيعُ الهواءِ المخزونِ في رِئَتَيْهِ فَيَخْتَنِق .

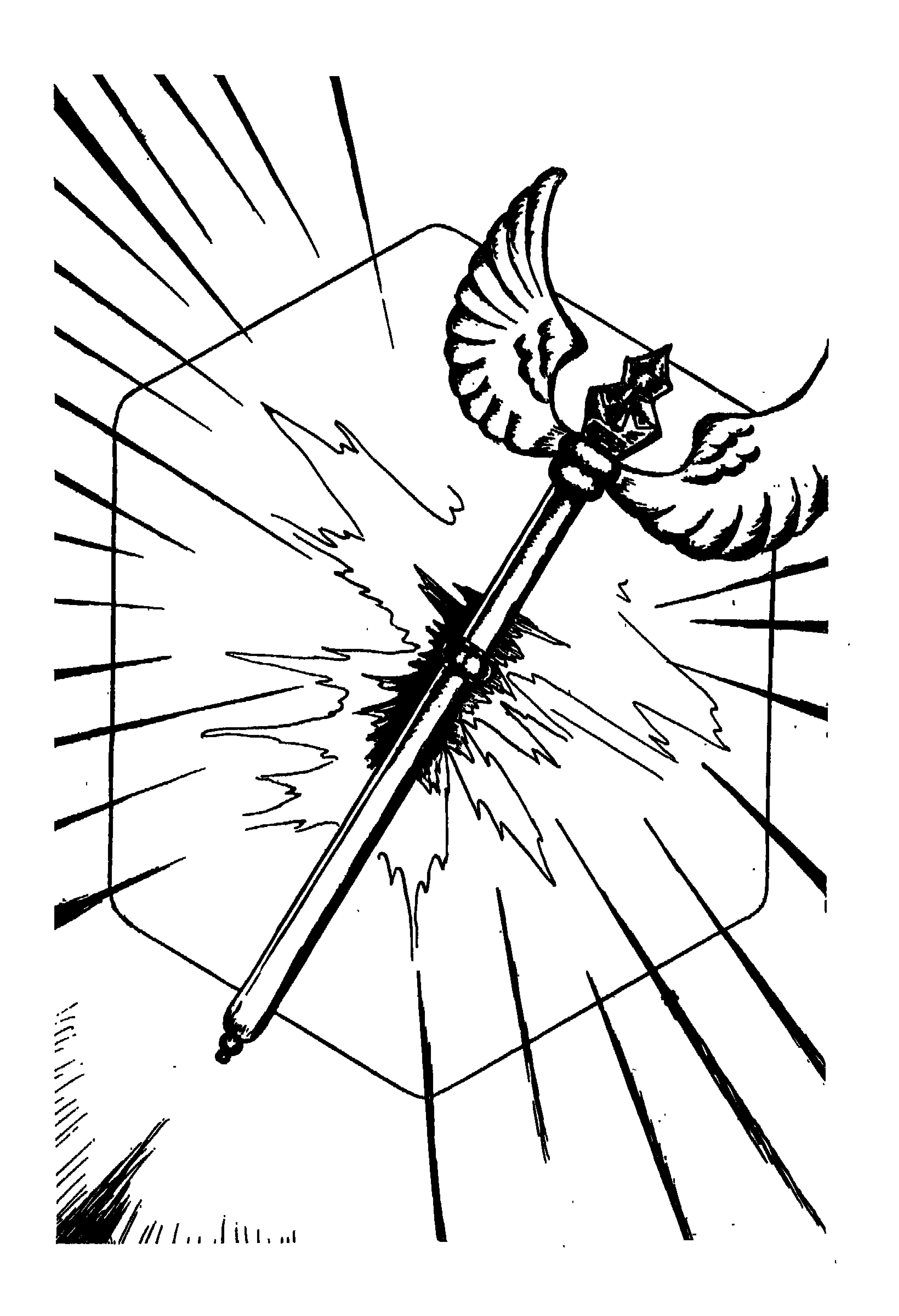
وكانت شعلةُ تطلقُ ما تَبَقّى في حَوْصَلَتِهَا من دُخانٍ في وجهِ الاخطبوطِ دونَ جدوى .

وهنا لم يبقَ أمامَ آختو إلاّ حلٌّ واحِد .. ذلك هو استعمالُ العصا السحريةِ ... فوجَّهَهَا نحوَ الاخطبوطِ الكبيرِ، وقال :

- يا صولجانَ الحكمةِ، حَوِّلْ هذا الاخطبوطَ الشريرَ الى سَرْدِينَة !

ولم يصدق آختو عينيهِ، وهو ينظرُ من ثقبِ المفتاحِ، الى ما حدثَ للاخطبوطِ الجّبارِ فقد انْكَمَشَ بسرعةٍ كبيرةٍ حتى صارَ كُتْلَةً صغيرةً تحوَّلَتْ في الحال إلى سَردينة .

أما (ضاحك) الدنفيلُ فظنَّ أنهُ أفلتَ من قَبْضةِ الاخطبوطِ بِمَحْضِ قوته . فصعدَ بسرعةٍ الى السطحِ، وفتح خياشِيمَه في الهواءِ، وأخذَ يتنفسُ بقوةٍ سعيدا بِنَجاتهِ .



وكان عَجَبُ شعلةَ شديداً حين أفاقتْ من غَشْيَتِهَا فَلَمْ تجدْ مِظَلَةَ الاخطبوطِ الهائلِ فوقها .

وخرج آختو من الثّقْبِ الكبيرِ، وجاءَ يحملُ بين أيَديهِ صولجانَه الثقيلَ، ووضعَه أمامَ أمه .

وفتحتِ شعلة فمها في دهشة وسألت :

ـ هل .. هل وجدتها ؟

فحرك آختو رأسَه بالايجابِ وقال :

ـ نعـم .

ـ حقيقة ؟ هذه هي العصا السحريةُ التي تحدثَتْ عنها خُناثةُ، المرينةُ العجوز ؟

ـ نعم، هي بذاتِها وصِفاتِها .

ـ وكيف عَرفت ؟

ـ لقد جَرَّبْتُها .

ـ كيف ؟

وهنا ظهر ضاحكَ يقهقهُ وهو يقتربُ حَذِراً من أن يفاجئَهُ الاخطبوطُ . فالتفت إليه آختو، وقالَ في مرح :

ـ الحمد لله على السلامة يا ضاحك !

فردَّ ضاحك وهو يراقِبُ الاركانَ المظلمـةَ بعينيـه :

ـ سلَّمكَ اللهُ يا آختو .. ولكنْ يجبُ ألاَّ نَبْقَى هنا حتى يعودَ ذلك الغولُ الشَّرِسُ . لم أكد أُصَدِّقُ أنني نَجَوْتُ من قبضَتِهِ الحديدية !

ـ لا تخشَ شيئا يا ضاحك.

فتدخلت شعلة مُحتجَّةً عَلى استهانةَ ابنها بالخطرِ، وقالت :

ـ لو كُنتَ وقعتَ في قبضتِه لما تكلمتَ هكذا .. لِنَذْهبْ من هنا حالاً، وقبلَ ان يعودَ الحارِسُ القاتل .

فضحك آختو قائلا :

ـ قلت لك لا تخافي يا أمي، فقد زال الخطر .

وفي هذه اللحظةِ مَرّتْ السردينةُ التي كانتْ أخطبوطاً عِملاقا أمامَ ضاحِكٍ فابْتَلَعَها دونَ جهد .

وسألت الأم :

ـ ولكنْ أينَ ذهبَ الأخطبوط ؟

ـ ابتلعَه ضاحكٌ منذُ لحظة !

فغضبتْ الأم، وصاحَتْ بولدِها :

ـ أَلاَ تكفَّ عنْ مزاحِك حتى ونحنُ في قلبِ الخطر ؟

ـ أنا لا أمزحُ يا أمي . ألم تسأليني كيفَ جَرَّبْتُ العَصا السحرية ؟

ـ نعم .

ـ لقد جرَّبتُها على الأُخطبوط . أمسكتُ بها، ووجهتُها نحوَه، وقلت : «يا صولجانَ الحِكمة، حوِّلْ ذلكَ الاخطبوطَ الشريرَ الى سردينَة»، وفعلاً تحوَّل الى سردينةٍ في رَمْشَةِ عيْن !

وفتح ضاحكٌ فمَه خائفا :

ـ وقد بلعتُه أنا ! بلعتُه دفعةً واحدة .. كل ذلك الاخطبوطِ الذي كان يملأ جوفَ هذه السفينة في بطني أنا ؟ يا إلهي ! وماذا لو تحوَلَ الى حالَتِه الاولى؟ ستنفجرُ بطني!

فهوَّن عليه آختو قائلا :

ـ لا تخفْ يا ضَاحكُ. ما دام معنا صولجانُ الحكمةِ، فلن يحدثَ لك شيءٌ من ذلك . وعانقَ الصولجانَ بأذرعِهِ الثمانيةِ، وقال لأمِه ولضاحك :

ـ والآن، وقد أتمَمْنَا مُهمتنا، علينا أن نعودَ الى بلادنا .. فقد طالَ غيابُنا . ولا أدري ماذا حدثَ لصديقتي «وردةَ» المسكينة .

وتطوَّعَ ضاحكٌ مرةً أخرى، فأخذَ الصولجانَ بين فكَّيْه، وأركبَ شعلةَ وابنَها، وانطلقَ يشقُّ عُبابَ البحر متوجِّهاً شرقاً نحوَ بلادِ الشواطيء .

ـ 14 ـ

أمّا وردةُ، فقد نامت في المدينةِ بعدَ أن ضرَبَتْهَا أمُّها نوماً مضْطَرباً . باتتْ تحلُمُ بشَعْكُوكَ وهو يحاولُ طعْنَ آختو بالمِشكِّ، وهي تَعرِّضَ له يدَها فيطعنُها في كفِّها .

وفي الصباح أفاقت ترتعشُ من بردِ الحُمَّى التي أصابَتْهَا من الْتِهابِ جُرْح كفِّها وتَعفُّنِه.

وحينَ وجدتها أمُّها كذلك غضِبت مرةً أخرى، لأنها لنْ تستطيعَ الذهابَ للعملِ لتأتي بالطعامِ والدواءِ لزوجِها المريض .

وبعد أن لَطَمَتْ وجهَهَا، وصاحت فيها مؤنّبَةً لها على اختِلاطها بأولادِ السوقِ، مِثْلَ شعكوكٍ وأمثالِه، قامتْ فَطَبَخَتْ لها ولأبيها شُرْبَةً، وخرجتْ تبحثُ عن عجوزِ الحارةِ المُعَالِجَة .

وبعدَ ساعةٍ عادتْ بها فصَنَعَتْ هذه عَدداً من اللّبَايخِ والخَلَائِطِ وَضَعَتْهَا وسَطَ كفِّ وردةَ وأقفلتْهَا ولفّتْهَا بضمَّادةٍ باليةٍ وسِخَة .

وباتت وردةُ تعاني من الألمِ في يدِها تلك الليلة . وفي الصباحِ أخذتها أمُّهَا إلى فَقِيهِ الحَارَةِ فكتبَ لَهَا حِجاباً، وغَسَلَ جُرْحَها الذي انْتَفَخَ وانْفَتَحَ بماءٍ وَسِخٍ أذابَ فيه رَمَادَ إحدى تَمَائِمِه .

ولم يَزْدَدْ إلاّ انتفاخاً وتعفّنا . فنصحَها والدُها أن تأخذَها الى الطبيبِ . وبكت الأمُّ لسماعِ كلمةِ الطبيبِ، وصاحت :

ـ من أينَ لي بفلوسِ الطبيب ؟

ـ خذِيها لطبيبِ الدولة . انه مجّاني .

فزاد بكاؤها :

ـ يمكن أن تموتَ الطفلة قبلَ أن أَصلَ إليه . المُمرِّضونَ والممرضات يَأخُذْنَ كرِشْوَةٍ أكثَرَ ممَّا يطلبه طبيبُ الفلوس . وهم يَقِفُون كالزَّبَانِيَةِ على بَابِه .

وبدا الألَمَ الحادُّ على وجهِ والدِ «وردة» .. فقد كان يَتَمَنَّى، أكثرَ من أيِّ وقتٍ في حياتِه، أن يكونَ صحيحَ البدنِ ليأخذَ ابنتَه الى الطبيب .

وفي النهايةِ لم تجدْ الأمُّ بُدّاً من أخذِ ابنتِها الى الطبيبِ، فقد كانت تتألَّم كثيرا، والانتفاخُ يزحَفُ الى ساعدِها وذراعِها .

وحين وصلَ دورُها، بعد وقوفِ يومٍ بكاملِه على بابِ الطبيبِ، نظرَ هذا الى اليدِ وحرَّكَ رأسَه في يأسٍ، وقال للأمِّ :

ـ تأخرتِ كثيرا في المجيءِ بهذِهِ الطفلةِ الى الطبيب . أخشَى أنه ليسَ هناك علاجٌ إلا قطعُ اليد ..

وضربت الامُّ صدرَها بيدِها وصاحت :

ـ قَطْعُ يدِ بنْتي ؟!

فأضافَ الطبيب :

ـ اذا لم تُقْطَعْ اليدُ فسوف يسري الالتهابُ الى بقيةِ الجَسَدِ وتموتُ الطفلة . هذه هي الوسيلةُ الوحيدةُ لانقاذِها . فكِّري في الموضوعِ، ولا تُطِيلي التفكيرَ، وعودي اليومَ اذا أردتِ العَمَلِيَّةَ .

ووقفتْ الأمُّ تفكرُ بجدٍّ، فخافَتْ وردةُ أن توافِقَ أمُّها على بَتْرِ يَدِها، فانْفَلَتَتْ منها وخرجَتْ هارِبَةً منَ المستشفَى ..

وظلَّتْ تجري باكيةً، وهي تحمِلُ يدَها المريضةَ بيدِها السليمَةِ، حتى وصلتْ الى الشاطىء ..

وبينما هي تنتحبُ والألَمُ والحزنُ يَعْصِرَانِ قلبَها، إذ أحاطَتْ بها عِدَّةُ ظلالٍ. ومسحت عينيها ووجهَها بكُمِّها، ونظرت حوالَيْها فإذا شعكوكُ وعصابتُه ينظرونَ إليها بِتَشَفٍّ انتِقَامي بَغيض .

ومدَّ شعكوكُ يدَه الخشنةَ فضغَطَ على يدِها المريضةِ قائلا :

ـ ماذا تُخَبِّئينَ هناك ؟

وحين صاحت من الألَم، ضحِكَتْ العصابةُ، فقالَ شعكوك :

ـ أرأيتِ جزاءَ وقوفِكِ في طرِيقنا ؟ أينَ هُو الآنَ ذلك الاخطبوط البئيسُ لِينقِذَكِ من مُصِيبَتِكِ ؟

ونَطَقَ أحدُهم قائلا :

ـ إذا انتفختْ اليدُ بعد الطعنَةِ بالمِشَكِّ، فلا علاجَ لها إلَّا القَطْع .

هكذا جَرَى «لِوَلَدِ عَلِيٍّ» .

ودفَعَها أحدُهم منَ الخلفِ فألْقاها على وجهِها فوقَ الرملِ، وانطلقت العصابةُ تَجُرُّ خلفَها قِطّةً مربوطةً بشريطٍ في اتجاهِ المَقابر ..

ونهضتْ وردةُ، فنفضتْ ملابِسَها من الرملِ، وتوجَّهتْ نحوَ الصحورِ التي كان البحرُ قد هربَ عنها . وهناك جلستْ فوقَ صخرةٍ حمراءَ تنظرُ الى الأفقِ في ذهولٍ وَصَمْت .

ـ 15 ـ

وأيقظَهَا من سُهُومِها صوتٌ غريبٌ يشبهُ «سْسْتْ». والتفتتْ حَوَالَيْها فلم تَرَ أحداً وعادتْ الى سُهُومِها، فعادَ الصوتُ الخَافِتُ : «تَسْتْ» .

ونظرتْ هذِه المرّةِ الى الماءِ أمامَهَا فإذا رأسُ آختو الصغيرِ خَارِجَ الماءِ يَلوّحُ لها بيدين منْ أيدِيه .

ونَسِيَتْ مَرَضَهَا تماما، وقامَتْ من فوقِ الصخرةِ، وانحنتْ عليه تَرْبتُ على رأسِه بأصَابعِ يدِها السليمة .

ونظرَ هو الى يدِها الأخرى، وقال :

ـ ماذا حدثَ ليدِك اليُمْنَى ؟

ـ مَرضتْ من طعْنَةِ ذلكِ الملعونِ شَعْكُوك .

وأخذت تبكي بحرارةٍ حين تذكّرتْ يَدَها . فقال آختو حزينا :

ـ لماذا تبكينَ يا وردة ؟

ـ لأنّ الطبيبَ قالَ لأمّي لابدّ من قَطْعِها حتى لا يَسْتَشْرِيَ المرضُ في بَقِيَّةِ جَسَدي .

فبكَى آختو، هُوَ الآخر، وقال :

ـ ليتني أستطيعُ اعطاءَكِ يداً من أيدي الثمانيةِ . فقد كنتُ أنا السببَ في كلّ ما حَدَثَ لك .

وهنا تكلَّمَتْ أمّهُ خارجةً من الماء :

ـ مساءُ الخيرِ يا وردة .. أرجو ألاّ تخافي منّي .. أنا أمُّ آختو، وقد كنتُ أودُّ أن أقابِلَكِ لأشكُرَك على إنقاذِ حياتِه .. ولكنّي لمْ أكنْ أتوقّعُ

مُقَابَلَتَكِ في مثلِ هذهِ الظروف .. ولعلَّ اللهَ أرسَلَنَا اليكِ في الوقتِ المناسبِ، كما أرسَلَكِ الى آختو، في ذلكَ الوقتِ بالذَّاتِ، لتُنقِذي حَيَاتَه .

ونظرتْ إليها وردةُ غير فَاهِمَةٍ فَغَيَّرَتْ شعلة الموضوعَ دونَ شرْحٍ وقالت :

ـ جئناكِ بهديةٍ اعترافاً بجميلِكِ بإنقاذِ آختو .. ولعلَّهَا تُنْقِذُ حياتَكِ كما أَنقَذْتِ أنتِ حياتَه .

وأشارَتْ الى آختو، فَرَفَعَ العصا السحريةَ، وقال :

ـ جئناكِ بهذهِ العصا السحريةِ من سفينةِ الكنزِ، بأعماقِ الغورِ السحيق . وهي تُسَمّى (بصَوْلَجَانِ الحِكْمَةِ) لأَنها تُحَقِّقُ لِصَاحِبِهَا عدداً من الأُمنيات .

فقالت شعلةُ لابنها :

ـ لماذا لا تُجَرِّبُهَا عليها، يا آختو ؟

فَرَفَعَهَا آختو وقال :

ـ أرجو ألاَّ تكونَ قد فَرِغَتْ من الحِكْمَة .

ثُم وَجَّهَهَا الى يدِ وردةَ المريضةِ وقال بلَهْجَةِ الآمر :

ـ يا صَوْلَجَانَ الحِكْمةِ، اشْفِ يَدَ وردة !

ووقف ينظرُ إِلَيْهَا هو وأمُّه .

وَأَحَسَّتْ وردةُ كأَنَّ أحداً يَضْغَطُ بِيَدٍ ناعِمَةٍ على كَتِفِهَا نَازِلاً على ذِرَاعِهَا وساعِدِها حتّى يَدِهَا وكَأَنَّه يَسُلُّ المَرَضَ منها . وأحسَّتْ بيدِها تَخِفُّ، وبالانْتِفَاخِ يزُول .

فأسرَعَتْ الى إِزَالَةِ الضَّمَّادَاتِ عَنْها، وَنَظَرَتْ إِليها فإِذا هي صحيحةٌ سليمةٌ كما كانت من قبل .

وفتحتْ فَمَهَا مُنْدَهِشَةً، وصاحت لِنَفْسِها :

ـ مُعجِزَة .! معجزة !

وهنا مَدَّتْ شعلةُ وآختو الصولجانَ الذي صارَ ثقيلاً حين أَخرَجَاه من

الماء الى وردة وَسَارَعَتْ هي إلى أخذِه منهما شاكرةً تكادُ تطيرُ من السعادةِ بنجاتِها، وسلامةِ يدِها.

وَضَمَّتْ الصولجانَ الى صدرِها وخاضَتْ الماءَ الى آختو وشعلة، اللذينِ كانا يَنْظُرَانِ إِلَيْهَا ودموعُ الفرحِ في عيونِهمَا، وانْحَنَتْ فَقَبَّلَتْ رأسَ كلٍّ منهما بحبٍّ كبيرٍ، وهي تقول :

ـ لا أدري كيفَ أشكرُكُما . أجدُ نفسي عاجزةً تماما عن الشكر ..

فقالت شعلة :

ـ أنا التي لا أدري كيف أشكُرُك على انقاذِ ابني من موتٍ مُحَقَّق .. اذا احتجتِ الى أيِّ شيءٍ من البحرِ، فما عليكِ إلّا ان تَقْعُدِي على صخرتِكِ هذه، وَتَصْفري .

ثم رفعا أَيْدِيهمَا مُوَدِّعَيْنِ، وَغَطَسَا ..

ووقفت وردةُ تنظرُ الى يدِها مرةً والى الصولجانِ أُخرى وتتساءلُ :

ـ هل هذِه حقيقة ؟ أم أنا في حُلْم ؟ إِنَّ مثلَ هذهِ الاشياءِ لا تَحْدُثُ إِلّا في قِصَصِ الأطفالِ الخَيَالِيَة .. فهلْ هي تحدُثُ لِي حقيقة ؟

والتفتَتْ يميناً ويسارًا لترَى هل رآها أحدٌ تتسلَّمُ الصولجانَ من الاخطبوطِ، أو سمِعَها أحدٌ تتحدَّثُ إِلى نفسِها، فلمْ تَرَ إِلّا أحجامَ شعكوكٍ وَعِصَابَتِهِ فوقَ صخرةٍ بعيدة .



- 16 -

كان شعكوكُ يربطُ القطةَ المسكينةَ الى حَجَرٍ كبيرٍ . وكانت عِصابتُهُ تصيحُ صيحاتِ الهنودِ الحُمْرِ، وَتَدُقُّ عَلَى عُلَبٍ القصديرِ، وترقُصُ حولَ القِطةِ الأسيرةِ .

وَعَرَفَتْ وردةُ ما كانوا يريدُونَ أَنْ يفعلُوا بالقطةِ، فأسرَعَتْ نحوَهُمْ تجرِي كالريشَةِ .

وحين صعِدَتْ الصَّخْرَةَ، ووقفتْ أمامَهمْ تَلْهَثُ، فوجِئُوا بِجُرْأَتِهَا بَعْدَمَا أصابهَا منْهم مِنْ أَذَىً ..

ووضعتْ هي يدَها على الصَّوْلَجَانِ داخلَ صَدْرِيتِها، وصاحَتْ فِيهِمْ آمرةً :

- ماذا ستفعلونَ بتلكَ القطةِ المسكينة ؟

فمضَى شعكوكُ في عملِهِ غيرَ عابىءٍ بسؤالِها، وَرَدَّ (بعكوكُ) مُساعِدُه :

- إذا لمْ تذهبي فَعَلْنَا بكِ أنتِ كذلِكَ، ما سنفعلُهُ بها !

فقالت وردة مُتَحَدِّيَةً :

- اذا حاولتُمْ أن تقذِفُوا بها إلى البَحْرِ فَسَتَنْدَمُونَ .

وهنا رَفَعَ شعكوكُ الحَجَرَ الثقيلَ بينَ يديهِ، واقْتَرَبَ من حافَّةِ الصخرةِ لِيُلْقِيَ بها وبالقِطَّةِ المَشْدُودَةِ إليها في الماء .

وحينئذٍ أخرجَتْ وردةُ صولجانَ الحِكْمَةِ من صَدْرِيَتِها، وَصَوَّبَتْهُ نحوَه :

- قِــفْ !

وارْتَعَدَتْ العَصَا السحريةُ في يَدِها، وداخَلَهَا الخوفُ من أن يكونَ الصولجانُ لا يَشْتَغِلُ إلاّ في أيدي الحَيَوان :

ورفعَ شعكوكُ الصخرةَ مُتَحَدّياً، وقفزَ بعكوكُ من مكانِهِ ليختَطِفَ الصولجانَ من يدِها، فصاحت وردةُ بالصولجان :

- يا صولجانَ الحِكْمَة، حوِّلْ هؤلاءِ الأنذالَ إلى فِيرَان !

ولمْ تُصَدِّقْ عَيْنَيْهَا وهي تَرَى جميعَ أفرادِ العصابَةِ يَتَحَوَّلونَ الى فيرانٍ عجفاءَ مُلْتَصِقَةٍ بالأرْض .

ولمْ يَفْطِنُوا هُمْ إلى ما حَدَثَ لهم إلاَّ بَعْدَ أن نَظَروا حواليْهم فَرَأَوا القطةَ تنظرُ إليهم من فَوق، وكأنها نَمِرٌ عِمْلاق . فأخذوا يبحثُون عن جُحُورٍ يَخْتبئُون فيها . والقطةُ تحاولُ الفَكَاكَ من رَباطِهَا لِتَنْقَضَّ عليهم .

وذهبتْ وردةُ نحوَ القطةِ فَفَسَخَتْهَا فانطلَقَتْ تُطارِدُ عصابَةَ الفئرانِ حتى اختبأوا في شِقٍّ بالصخرة .

ووقفتْ هي فوقَهم تنظرُ إليهم وتضحكُ منهم، وهم يستعطفونَها لِتَخَلِّصَهُمْ من مِحْنَتِهِمْ . وانْحَنَتْ عليهم، وقالت :

- وداعاً .. سأترُكُكُم في أيدٍ أمينة . (ثم ضحِكَتْ وقالت) بل بين مخالِبَ أمينة .. قريبا يمتليءُ البحرُ ويَصْعَدُ الماءُ من تحتِكم، ويَقَعُ لكم ما كنتم تَنْوونَ عَمَلَهُ بالحيوانِ الأبْكَمِ البَرِيء .

وذهبتْ وتركَتهم ناويةً أن تعودَ لِتَخْلِيصِهِمْ بعدَ العودةِ الى بيتها .

وفي البيتِ وجدتْ أمَّها تبكي على صَدْرِ أبيها المريضِ بِمَرَارةٍ وتقول :

- ضَاعَتْ بِنْتي وردة ! ضاعَتْ وردتي العزيزة !

ودخَلَتْ وردةُ فوضعَتْ يدَها على ظهرِ أمِّهَا، وانحَنَتْ عليها :

- أمِّي .. لا تبكي يا أمي .. ها أنا عُدْتُ !

فرفعتْ أمُّها رأسَها، وضَمَّتْها الى صدرِها، واستمرَّتْ في النَّحِيب :

ـ بِنْتي وردة .. لا أريدُ أن يقطعَ الطبيبُ يَدَكِ .. من سيتزوجُ فتاةً بلا يَد ؟ كيفَ ستقومينَ بشُغْل دَارِك ؟

فقالت وردةُ وهي تربِّتُ بيدِها التي كانت مريضةً على خدِّ أمِها :

ـ شُفيَتْ يدي يا أمي .. أنظري إليها .. لمْ تَعُدْ مريضة !

وحَرَّكت الأمُّ رأسَها باكيةً وغيرَ مصدِّقَةٍ، فدفعتها وردةُ عنها بِرِفْقٍ، وَعَرَضَتْ عليها يدَها :

ـ أنظري .. أنظري إليها .. إنها سليمة !

ونظرَتْ الأمُّ بعدَ ان مسحتْ دمْعَها فَظَهَرَتْ الدهشةُ الشديدةُ على وجهِها، وفتحت فَمَها لتتكلَّمَ فلم تَقْدِرْ، وَشَرَحَتْ وردة :

ـ إنها معجزة يا أمي ! ولا يمكنُ أن تَقعَ إلاّ في الخيال .. أنا كذلك لم أُصدِّقْ عيني .. ولكنَّها حقيقة !

وسمعَتْ أباها يسأل، فاقتربتْ منه، ومدَّتْ له يدَها فَلَمَسَها بيدَيْه ليتأكَّدَ، وأخذَ يُقَبِّلُها، ويُخَضِّبُها بدموعِه .

وأقعدتْها أمُّها في حُجْرِها وأخذَتْ تَسْأَلُها، وهي تَحْكِي لها عن كلِّ ما حَدَثْ .

وحين حَدَّثَتْهَا عن صَوْلَجَانِ الحِكْمَة الذي يُحَقِّقُ الأَمَاني، رَأَتْ في عَيْنَيْهَا بريقاً غريبا ..

فقالت وردةُ مُسْتَدرِكَةً ؛ وهي تدعو الله أن يغفِرَ لَها كِذْبَتَهَا :

ـ ولكنْ لَمْ تَبْقَ به إلاَّ أمنيةٌ واحدةٌ، كما قال لي آختو، الاخطبوطُ، وَعَلَيْنَا أن نُفكِّرَ جَيّداً قبلَ ان نَتمنَّاها . فَلْيفكِّرْ كلٌّ منا في أمنية . فاذا اتفقنا على واحدةٍ تمنيناها .

فرفعت الأمُّ وجهَها الى السَّماء، وقالت :

ـ أمنيتي أنا هي أن أصبحَ شابّةً جميلةً وغَنية .. تَصَوَّرَا، اذا أصبحتُ كذلك، فسوف أُسْعِدُكما جدا ..

والْتَفَتَتْ وردةُ الى أبيها وقالت :

ـ وما هي أمنيتكَ يا أبي ؟

فهمس بصعوبة :

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اذا سألتم اللّهَ فاسألوه العافية». ويقول المثل: «الصِّحَّة تاج على رؤوس الاصحَّاء، لا يَرَاه الا المَرْضَى»، لذلك فأنا أتمنَّى على الله الشِّفاءَ والصِّحَّة.

والتفتت الأمّ لزوجها، وقالت :

- الصحَّة وحدها لا تكفي . سنبقى كما كنا فقراء .

وقال هــو :

- وأنتِ اذا أصبحتِ شابةً جميلةً وغنيةً، فلن تستطيعي البقاءَ معنا في هذا الكوخ الحقير، ومع رجلٍ مريضٍ وكبيرِ السنِّ مثلي .

فالتفتت الأم لوردة وقالت :

- أحْكُمِي أنت بيننا يا عزيزتي .. فأنتِ صاحبةُ الصولجانِ .. ماهي أمنيتك ؟

فرفعت وردةُ عينيها الى السماءِ باسمةً، وقالت :

- أمنيتي أنا ستحقّقُ لنا جميعاً كلَّ ما نَتَمنَّاه .. أنا أَتمنَّى لنا السعادة .

فحرَّكَ الابُ رأسَه مُوافقا، وقالتِ الأُمّ :

- كيفَ لمْ أفكّرْ في ذلِك ؟ يا لِي من مُغفَّلة !

وأخرجتْ وردةُ الصولجانَ، ووضعتْه بينَهُم وقالت :

- يا صولجانَ الحِكمة، حَقِّقْ لنا نحن الثلاثةُ السعادَةَ والهَنَاء .

وفي نفسِ اللحظةِ بدأ الأبُ المريضُ يشعُرُ بدفءٍ غريبٍ يسري في عظَامِهِ البارِدَةِ ولأول مَرَّةٍ رفعَ رَأسَه عن الوسادَةِ، وجلسَ دون مُسَاعَدة .

وأحسَّتْ الأمُّ براحةٍ وطمَأنينَةٍ تَملأ صدرَها . وبمَشاعِرِ الانقباضِ، والحسْرَةِ، والقلقِ تَزَايلُها .

ووقفَ الأبُ لأولِ مَرَّةٍ فَزَغْرَدَتِ الأمُّ، وأمسَكَتْ بيدِه فأخرجَتْهُ من الكوخ الى الساحةِ المقابلةِ للبحرِ، وهو يبتسمُ ويقول :

- قريباً سأعودُ الى عَمَلي يا عزيزتي، وننسى الفقرَ والبؤْس .

ـ 17 ـ

وتذكرتْ وردةُ شعكوكَ وعصابتَه فخرجَتْ مُسرعةً نحْوَ الصخرةِ .

كان البحرُ يمدُّ .. والموجُ يَرُشُّ الفِئْرَانَ السبعةَ من تَحتٍ، مُهَدِّداً بإغراقِهَا .. وكانت القطَّةُ تحرُسُ الشِّقَّ، وتُدْخِلُ فيه مخالِبهَا الحادَّةَ بَين الفينةِ والفَيْنَةِ، لعلَّها تختَطِفُ واحداً منها .. وكلما ارتَطَمَتْ موجةٌ بالصخرَةِ ارْتَاعَ الفئرانُ، وصعِدُوا قليلاً إلى فَوْقَ، واقتربُوا من القطَّةِ القاعِدَةِ لهم بالمِرْصَاد .

وأَطَلَّتْ وردةُ عَلَيْهِم، وقالت :

ـ هل تُبتُمْ الى اللهِ من جَرَائِمِكُمْ ؟

فجاءَتْهَا أصوَاتُهم الادمية :

ـ نعم ! نعم ! نُقسِمُ لَكِ ألاَّ نعودَ أبداً !

ـ أقْسِمُوا كذلكَ أن تُنظِّفُوا أبدَانَكمْ ومَلابِسَكُم .

ـ نُقْسِمُ، نُقْسِمُ !

ـ وأن تعودُوا إلى المدرسةِ ولا تغادِرُوها حتى تُتِمُّوا دراسَتَكُمْ.

ـ نقسم، نقسم !

ـ واذا حَنَثْتُمْ في قَسَمِكُمْ فأنتمْ تعرفونَ ما يَنْتَظِرُكُمْ.

ثم أخرجتْ الصولجانَ، وأبعدَتْ القطةَ عن الشِّقِّ، وأَمرَتْهمْ بالخروجِ .

وحينَ خرجوا وَجَّهَتْهُ نحوَهُم وقالت :

ـ يا صولجانَ الحِكمة، أرجِعْهُمْ الى شَكْلِهِمْ الآدمي !

وفي رمشةِ عينٍ تحَوّلوا الى أولادٍ كما كانوا .. وحين رأَتهم القطةُ أَطْلَقَتْ كوارعها للريح حتى اختفتْ في المقبرة .

وطلب شعكوكٌ من وردة أن تُصْبِحَ رئيسةَ العِصابَةِ، فَقَبِلَتْ قائلةً :

ـ مِنَ الآنَ فَصَاعِداً سيكونُ شعارُ عِصابَتِنا «الجِدُّ في الدِرَاسَةِ، ومساعَدَةُ المرْضَى والفقراء، والرِفْقُ بالحَيَوَان» .

وَهَتَفَ أفرادُ العصابَةِ باسمها :

«عاشت وردة ! عاشت وردة !»

ـ 18 ـ

وعادت وردةُ الى دارِهَا وقد نَزَلَ الظلامُ . ولم تجدْ أبَاها هناك، فسألت أمَّها عنه فقالت لها أنهُ ذهبَ الى جامِعِ الحَيِّ لصلاةِ العِشاءِ مع الجماعَة .

وفي تلكَ اللحظةِ دخل الحاجُّ مومنٌ باسماً مُشْرِقَ الوَجْهِ، فسألته زوجتُه حَفْصَة :

ـ هل لقيتَ في المسجِدِ أحداً مِنْ أصدقائِك القُدَماء ؟

ـ لقيتُهُمْ جميعا . وكلُّهم عَرَضُوا عليَّ أن يبحَثُوا لِي عن عملٍ معهم .

ـ الحمدُ للــــه !

وتَعَشَّى الثلاثَةُ، ووضعتْ وردةُ رَأْسَهَا على رُكْبَةِ أبيها وهو يحكي لها قِصصاً من السيرةِ النبويةِ، حتَّى غرِقَتْ في نَوْمٍ عميق .

وحينَ حَمَلَتْهَا أمُّها لِتَضَعَهَا في فراشِها كانت تَحْتَضِنْ صَوْلَجَانَ الحكمَةِ بقُوةٍ الى صَدْرِها .

ونَام الجميعُ تلكَ الليلةَ في هدوءٍ وطَمأْنِينَة .

وقُبَيْلَ أذانِ الفجرِ استيقظتْ وردةُ على صوتِ همسٍ خَفيفٍ، ففتحتْ عينيها فإذا بها وجهًا لوجهٍ مع آختو، الأخطبوط .

كانت عيناهُ تلمعانِ في أشِعَّةِ النجومِ، وهو يُشيرُ لها ألاَّ ترفعَ صوتَها، ويهمسُ في أُذُنِها :

ـ جئتُ اليكِ مُخَاطرا بحياتي عَبْرَ اليابِسَةِ لأَنَّ صديقَنَا ضاحِكُ الدنفيلُ في خَطرٍ كبير .

فجلستْ وردةُ في فِراشِها مُنْزَعِجَةً، وقالت :

ـ يا إلهــي !

ثم وضعت يدَها على فِمها، وَحَمَلَتْ آختو في كفِّها، وخرجتْ به، وهي تَسْألُه :

ـ ماذا حدثَ له؟

ـ وقع في شِباكِ المَضْرَبةِ . وقريباً سيقتُلُونَه رَمْياً بالرَّصَاصِ لأَنَه يُهيِّجُ التُّونَ، وبقيةَ الاسماكِ الأُخرى بوجودِهِ بينها .

ـ وماذا سنفعلُ لإنقاذه ؟

ـ إذا أعطيتَني صولجانَ الحِكمة فسأذهبُ أنا وأمِّي الآنَ لإنقاذهِ وإِخْرَاجِه منَ الشبَكَة .

فأخرجتْ وردةُ الصولجانَ من صَدْرِيَّتِهَا، وأسْرَعتْ بآختو نَحْوَ الشاطئِ قائلة :

ـ لمْ تَعُدْ بي حاجةٌ إلى الصولجانِ .. فقد تَحَقّقتْ جميعُ أمنياتنا .

ووضعت آختو داخلَ الماءِ، وَنَاوَلَتْهُ الصَّولجانَ، وكانت أمُّهُ شعلة في انتظارِهِ، فذهبا معا مُسْرِعينَ إلى حيثُ يوجدُ ضَاحك .

ـ 19 ـ

وعادت هي الى الدَّار سعيدةً بصداقَتِها مع هذِهِ الحيواناتِ الطيبةِ الوَفِيَّةِ . واستَلْقَتْ فوقَ سَرِيرها، ونامت .

وفي الصباحِ حين أيقظتْها أمُّها سَأَلَتَهْا :

ـ أينَ صولجانُ الحِكمة ؟

ـ أَعَدْتُهُ الى صديقي آختو لِيُنْقِذَ بهِ صديقنا ضاحِكَ الذي وَقعَ في شَبَكَةِ المَضْرَبَةِ.لماذا تسألينَ عنه، يا أمِّي، هل بكِ حاجةٌ إليه؟

فابتسمتْ الأمُّ وَضَمَّتْ صغيرَتَها إليها وقالت:

ـ لا يا عزيزتي.. لَمْ تعدْ بي حاجةٌ إليه.

انتهت

كتب للمؤلف

1 ـ الامير الغراب
2 ـ سر المجلد الغامض
3 ـ الطريق السري الى كهف الحمام
4 ـ صابر المغفل الماكر
5 ـ زياد ولصوص البحر

تحت الطبع

ـ جعفر الطيار
ـ جزيرة النوارس

قصص قصيرة

ـ هب الريح
ـ المومياء.. قتلة وادي الملوك
ـ اماندا.. وبعدها الموت
ـ مولاي ادريس (مسرحية)

الغلاف : عبد الحميد السملالي
الرسوم الداخلية: محمد رشدي وعبد الحميد السملالي

مطبوعات ميثاق - المغرب - الرباط

رقم الايداع القانوني : 1984/353

هذه الرواية

بقلم: الأستاذ الشاعر سعيد العيسي

عن مجلة (هنا لندن) عدد أغسطس 1987

رغم أن عدد المتخصصين في الكتابة للأطفال عندنا، لا يزال قليلا، إلا اننا، وبفضل هذه القلة، بتنا نضع قدمنا على العتبة المفضية إلى البهو الأوسع الأرحب. من هذه الصفوة من الكتاب، بل في طليعتهم، الأديب المغربي الكبير الشاعر الناثر أحمد عبد السلام البقالي. وقد سبق أن نوهنا، في هذه الزاوية، بكتاب آخر للأستاذ البقالي، في أدب الأطفال هو « الطريق السري إلى كهف الحمام » الذي لقي نجاحا ورواجا كبيرين في حينه. أما كتابه الحالي فيقع في حوالي ثمانين صفحة من القطع المتوسط، مطبوع بحرف كبير مشكول يساعد الطفل على القراءة الصحيحة، ومزين برسوم داخلية ايضاحية. ومما يذكر، أن المؤلف نال على كتابه هذا جائزة [المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم] عن أدب الأطفال.

أما القصة في ذاتها فجد مشوقة، على بساطتها، قصة تُنَمّي مدارك الطفل، وتنشط ذهنه، وتوسع خياله، وتقوي ملكة البحث عنده. ناهيك بما تغرس في نفسه الطرية من فضائل : كالشجاعة، والنخوة، والعطف على الحيوان، والبعد عن عشراء السوء. ثم انها، إلى هذا وذاك، تفتح عيني الطفل على آفاق واسعة من عالم الحيوان البحري. فهل تساءلت قط، وانت تنظر إلى البحر، ماذا يجري تحت هذا الخضم الهائل ؟ في هذه القصة يأخذك (أختو)، وامه (شعلة)، في رحلة شائقة، ومغامرة تحبس الأنفاس، من شاطىء مدينة (أصيلة)، إلى حافة الغور السحيق، حيث يسمعان من (خنائه) العجوز، أغرب قصة حدثت على ظهر سفينة اسبانية، تحمل كنزا نفيسا من (أمريكا) إلى (اسبانيا)، بما في ذلك قصة الصولجان السحري الذي يحقق الأماني...

قصة (أختو)، الأخطبوط الصغير، والفتاة البشرية (أمينة)، هي قصة انسان وحيوان، قصة تضحية ووفاء واعتراف بالجميل، وغوص في اعماق والناس... لقد اقبلت على قراءتها مُتَأَفِّفاً بَرِماً، باعتبار أنها ليست للكبار.. لم البث أن شغفت بها، ورحت اتابع احداثها بلذة كبيرة. هذه المتعة التي فيها، هي التي تجعلني اتطلع بشوق، منذ الآن، إلى اختين لها موعودتين، م تحت الطبع : « جعفر الطيار »، و « جزيرة الفوارس ».